

أزهار برية

عبد الله كنون

أزهار برية

مطبعة «ديسبريس» - تطـوان

عبد الله كنون

أزهار برية

تطوان

1976

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حين دفعت بأصول هذا الكتاب الى المطبعة، لم أكن قد وضعت له اسما بعد، وحين شارف التمام فكرت في الامر فاستقر رأيي على إسم «أزهار برية»، مراعيا في ذلك المناسبة المعنوية بينه وبين أسماء الاجزاء السابقة من هذه المجموعة، وقد كان اسم اولها «التعاشيب» وثانيها «واحة الفكر» وثالثها «خل وبقل» ورابعها «العصف والريحان».

وما إن بعثت بهذا الاسم الى الخطاط حتى وقع في ذهني ان لي به صلة قديمة، وانني أعرفه جيداً، أعرفه اسماً لشيء يلزمني ويلازمني من زمن بعيد، واشتبه على الامر فلم اهتد اليه لاول وهلة، ولكني شممت ريحا طيبة كأنها تهب مع النسيم، فإذا بالطبيعة التي استعرت منها الاسم تدلني على أنه اسم العطر الذي دأبت على استعماله منذ عهد الشباب، وما كان ذهولي عنه الا لانني نطقته بالعربية وهو بالافرنجية.

إذن فأنت، قارئي العزيز، تحمل بيدك باقة من الرياحين التي تبتت في أرض عذراء على سنة الطبيعة، إنما سقاها ماء المزن الصافي وأخصب تربتها أشعة الشمس الدافئة، فهي أجمل من النهار المقمر الذي مثله أبو تمام، بل ان بيدك قنينة طيب مستقطر من زهر الربي باعتبار الاسم الافرنجي، وما هذا الطيب المستقطر الا روح الزهور ونفس الرياحين!..

ولعل العلاقة بين الافكار والانتاج الادبي وبين ذواتنا لا تعدو أن تكون مثل العلاقة بين الطيب والازهار والرياحين، فنحن نقدم في هذه الاعمال الادبية أرواحنا وأنفاسنا، وعملية تحضيرها لا تقل جهداً عن عملية التقطير، وبذلك يمكن للقاريء أن يقدر العطاء الذي ياتي من الاديب والكاتب، ولا سيما إذا كان جديداً لم يبتذل، وطريفا لم ينسج فيه على منوال سابق، ونقياً طاهراً مثل زهور البرية.

وغني عن البيان، وبخاصة لقاريء الاجزاء الاربعة التي صدرت من هذه المجموعة، أن الجزء الخامس منها لا يكون الا مكملا لها ومن مادتها العضوية، فهو مثلها أدب ونقد، قديم وحديث، مغربي في أضيق حدوده المغربية: وأوسعها أيضا، مشرقي: عربي وإسلامي، اذ كان الاسلام أعظم رسالة بلغها العرب الى البشرية، فتلقتها شعوب غير عربية في المشرق قبل غيرها بكل لهفة، وانعكست عليها ثقافتها العريقة، فكانت هي هدية هذه الشعوب الى العرب، فنحن إذا قلنا الفكر أو التراث العربي الاسلامي فإنما نعني العطاء الحضاري الواحد الذي حصل من المزاوجة بين الرسالة والهدية، فكان عطاء فريداً سعدت به الانسانية مدى عصور وأجيال، وما يزال قمينا ان يسعدها اذا قام عليه حفظة كرام من جنس العرب والمشارقة السابقين وخلاصة ما نريد قوله إن في هذا الكتاب أدبا ولكنه أدب يغني ويقني، وان فيه نقداً إلا أنه نقد يشيد ويبني، وبحسبه ذلك تعريفا وتقديما!..

لغـة العلوم فـي التـدريس الجامعي

وهل تصلح العربيـة أم لا غنى عن التدريس باللغات الاجنبية

وجهت إلي رئاسة التحرير لمجلة المعرفة السورية الغراء هذا السؤال، بعدما نشرت مقالا هاما في الموضوع للدكتور بشير العظمة (العدد 47) وتعقيبين عليه لكل من الدكـتورين شوكة الشطى وسلمان قطاية (العدد 50) طالبة مني المساهمة في توضيح هذا الموضوع الثقافي القومي. ولعلها قد وجهته لغير واحد من قراء المعرفه وحسناً فعلت، فإن الموضـوع حري بأن تتداوله الاقلام العربية من كل بلد، لتكشف، الزيف الذي اصطنعه المستعمر الاجنبي لما سيطر على البلاد العربية وما زال يروج له هو وعملاؤه بعد أن جلا عنها إلى غير رجعة.

وجواباً عنه أقول ان لغة العلوم في التدريس الجامعي وفيما قبله من مراحل الدراسة في العالم العربي، يجب أن تكون هي العربية، ولا يصح أن تكون غيرها بحال. ولئن

2

كان ما أثار هذا التساول من جديد هو تقرير الخبراء الاجانب الذي أوصى (بإجماع الاراء) بضرورة تعليم الطب في جامعة حلب باللغة الانكليزية، فإن ما وراء هذا الاجماع من نية مبيتة لغزو عاصمة بني حمدان غزوا فكرياً على غرار ما فعله (غلوب) من قبل في بلاد الكنانة، هو مما لا ينبغي أن يغيب عن الاذهان.

والغريب في أمرنا نحن العرب، أن مقوماتنا الاولى من لغة وتربية وما إلى ذلك هي التي نجعلها محل استشارة واستشارة أجنبية بالخصوص، في حين أن الشعوب التي تريد أن تبني كيانها على أساس من ماضيها وحضارتها وتطلعاتها للمستقبل، تخطط لنفسها وتستعين بالاجانب على التنفيذ.

فعلى أحسن ما يكون الظن بهؤلاء الاجانب، ألا يوحي موقفنا هذا بالضعف والتخاذل والشك في قوميتنا العربية ؟ وإذن فإن الاجنبي أولى منا بالشك في صلاحية مقوماتنا ولا ينتظر منه أن يتحمس لها دوننا لان من لم يومن بنفسه لم يومن به الناس.

ولقد قرأت في العدد الاخير من مجلة دنيا العلوم استجوابا أجرته المجلة مع البروفسور وا. ووستر أستاذ علم البلورات بجامعة كمبردج، ورئيس الاتحاد البريطاني للمشتغلين بالعلوم، وأمين صندوق الاتحاد العالمي للمشتغلين بالعلوم، وذلك بمناسبة زيارته للقاهرة، جاء فيه عندما سئل عن رأيه السريع فيما يجب ان يكون عليه التعليم في البلاد النامية، فقال على

الفور: يجب أن يكون التعليم الابتدائي فلسفة البلاد القومية، وان يكون في التعليم الثانوي لغة عالمية إلى جانب تدريس اللغة القومية، مع ضرورة التدريب على الاعمال اليدوية وقيام التلاميذ بتجارب عملية بأنفسهم لا ان يقوم المدرس بتجربة عملية امام التلاميذ وهم يتفرجون فقط. فإذا اردنا ان نحقق لشعب ما تدريبا متينا فيجب ان يبدأ هذا التدريب في كل مكان.

وما قاله هذا العالم الكبير هو الذي نقول به، فإن إضافة لغة اجنبية او لغتين الى اللغة القومية في التعليم الثانوي هو مما لا مندوحة عنه لاتاحة فرصة التعليم في الخارج ولمتابعة الاطلاع على ما جد في المجالات العلمية من نظريات وابتكارات سواء كانت هذه اللغة القومية هي العربية او الفرنسية او الانكليزية او سواها، فالعربية في هذا تتساوى مع غيرها من اللغات في عدم صحة الاستغناء عن اللغات الاخرى. ولعل البروفسور وستر سكت عن التعليم الجامعي لان السؤال كان عن التعليم في البلاد النامية، والبلاد العربية في هذا الميدان، اعني ميدان التعليم، ليست من البلاد النامية لغتها العربية لغة حية ومتطورة وعريقة في المجد العلمي والحضارى، وهذا أمر لا يجهله مثل البروفسور، اللهم الا ان يكون المستجوب من اولئك الذين يشعرون بمركب النقص الذي ألمعنا اليه؛ آنفا بازاء اللغة العربية فيكون سكوت المجيب عن هذه النقطة بالذات من اسلوب الحكيم في الجواب.

نعم ان بلادنا العربية بلاد نامية اقتصاديا ولكنها علمياً بلاد متقدمة، لان لها ثقافة روحية وتشريعية عظيمة، ولها ادب عالمي خالد، ولغتها بالمكانة التي ذكرت، فليس ينقصها الا تكوين علمي تقني سريع لتلحق بالركب الطلائعي التقدمي وتجبر خللها الاقتصادي الذي يلز بها في حظيرة الشعوب النامية، وربما كان هذا التكوين هو ما يعنيه ووستر بالتدريب الفني على ما جاء في آخر كلامه.

ويؤيد هذا ان الحكومة المغربية استقدمت لجنة من خبراء البنك الدولي للانشاء والتعمير بقصد الاستشارة، فكان من رأيها أن ازدواجية لغة التعليم هي مما يستنزف مالية المغرب (تبلغ ميزانية وزارة التهذيب الوطني المغربية 50 مليارا من الفرنكات يصرف معظمها في أجور الاساتذة الفرنسيين، فضلا عن كونها السبب في هبوط مستوى التعليم، وأوصت باعتماد لغة البلاد وجعلها اللغة الاساسية للتعليم.

ولقد يعجب القاريء من اخلاص هذه اللجنة الاجنبية وإشارتها الصائبة، ولكنه إذ أذكر أنها لجنة مالية لا ثقافية، وأن ما قامت به هو مقارنة الارقام بين الموارد والمصارف في قطاعات المصالح الحكومية، فلم يكن يهمها التمكين لهذه الجهة أو تلك وإنما غرضها إيجاد وضع مالى سليم، إذا ذكر ذلك زال عجبه وعرف سر تلك النصيحة الخالصة.

وعليه فإن بيننا وبين تخطي عتبة التخلف هو نشر التعليم

بلغتنا القومية، ورفع مستوى شعوبنا من الامية العلمية التي تتخبط فيها إلى مستوى الشعوب المتعلمة المتمرسة ببسائط العلوم ونواميس الطبيعة، اي نقل العلم إلى المجتمع العربي وجعل افراده يدركون حقائقه وبديهياته كما يدركها أي فرد في مجتمع راق من المجتمعات المعاصرة، ولن يكون ذلك الا إذا تعلم الشعب العربي بلغته الام، وطوع لسانه على التعبير عما يشاهده ويحسه بألفاظ يعرف مبناها ومعناها. أما ان يتعلم عدد من الاشخاص بلغة اجنبية فمعناه نقل هؤلاء الاشخاص إلى عالم العلم وزيادة عدد المتعلمين في اللغة التي تعلموا بها، فلا تستفيد شعوبهم كبير فائدة منهم لان التفاهم بينها وبينهم معدوم، بسبب اللغة التي هي اكبر حاجز يمنع هذا التفاهم بل يمنع حتى الاتصال، ولعل هذا هو السر في ان النهضة العلمية في بعض الاقطار العربية بدأت منذ نحو قرن وما زالت لم توت أكلها على النحو المرغوب، وما زال الشعب العربي فيها يعيش بعقلية القرون الوسطى.

يشير بعضهم إلى وجوب ملاحقة ركب المعرفة وضرورة الاتصال بأوساط العلم في آخر ما أنتجت من أجل التقدم الانساني المطرد، قائلا أن ذلك لا يتأتي الا ممن تلقى تعليمه العالي بأحدى هذه اللغات الاجنبية الحية، ونحن نقول أنه يتأتى لمن أتقن لغة من تلك اللغات ولا يلزم أن يتلقى تعليمه العالي بها وقد قلنا بضرورة تلقين لغة أجنبية أو لغتين

منذ المرحلة الثانوية للتعليم، وإنما الذي ينبغي تأكيده هو أن يكون هذا التلقين قويا ليتقن المتعلم تلك اللغة كما هو الحال عند غيرنا من الامم والشعوب، فإذا جاءت مرحلة التعليم العالي وحصل الطالب على الدرجة العلمية المنشودة بلغته الاصلية كان عنده من الوسائل العلمية ما يؤهله لمواكبة قافلة البحث العلمي والتقني في العالم بكل نجاح إن هو أراد ذلك وهذا هو ما يفعله العالم الفرنسي والالماني وغيرهما من علماء الامم التي تقف في الصف الاول من حيث التصنيف في التقدم والحضارة وكذا علماء غير هذه الامم ممن يقفون في الصف الثاني وإن كانوا في الطريق وعلى وشك اللحاق بأولئك، فليس منهم من يدرس العلوم في بلاده بغير لغته القومية، اللهم الا أن يستمع لاستاذ أجنبي تستقدمه جامعته لالقاء بعض المحاضرات في فرع من فروع المعرفة يكون له فضل علم به، أو يذهب في بعثة دراسية إلى بلد أجنبي، وحينئذ تكون اللغة الاجنبية التي لقنها في الثانوي هي وسيلته للدراسة، وهو بإقامته في ذلك البلد الاجنبي لا بد أن يتقوى في لغته حتى يمكنه مواصلة تعليمه بها.

وعلى كل فان الاطلاع على دنيا العلوم وما يجد فيها من تجارب وكشوف مرهون بالهمة والنشاط وحب المعرفة اكثر من كل شيء آخر، فكم من دارس بهذه اللغة الاجنية او تلك قد تمكن منها كل التمكن وصار اعرف بها من كثير من أهلها، وإذا تكلم بها فإنه لا يخرم حزفاً

ولا نبرة من نبراتها، ولكنه في مجال العلم والبحث والاطلاع صفر على اليسار، قد ينقطع ما بينه وبين التحصيل منذ تخرجه، ولم تفد منه أمته شيئا يذكره بل هو يشكل خصما لها بما انه تنكر لمعارفها ولغتها حتى لقد اصبح عبأ ثقيلا على مجتمعه لا يستسيغه ولا ينسجم وإياه.

وبالعكس فإن هناك دراسين موفقين ممن الهبتهم العزيمة والتطلع وشغفوا بمحبة العلم والمعرفة ولو لم يكونوا على مثل الرسوخ والتضلع في اللغة الاجنبية الذي عند صاحبنا الاول، نراهم دائما على اتصال بما جد ويجد في حقل الخبرات الانسانية والاعمال الفنية المبتكرة ينشؤون وينتجون باستمرار ودون انقطاع، ما يثرون به تراثهم القومي وحياة الفكر في بلادهم، فهؤلاء هم الذين تعول عليهم الامم والشعوب في تطوير عقليتها واخصاب ثقافتها، لا اولئك الطفيليون الكسالى الذين لا غناء فيهم ولا فائدة ترجى منهم.

ونعطي مثالا من مغربنا العربي الذي يعتمد الفرنسية في الدراسات العامة، فإن عشرات بل مآت من مثقفيه قد انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة العلمية، او على الاقل لا يعرف لهم أثر في هذه الحياة، وقد مر على تخرج الكثير منهم عشرات السنين وذلك برغم إتقانهم للغة الفرنسية اتقان أبنائها لها، فالطبيب منهم يعالج المرضى ان لم يشغل وظيفاً حكوميا يكون أكثر دخلا من مهنته تاركا ميدان التطبيب للدكتور الاجنبي وكذلك المحامي والمهندس

وغيرهما، لا يزيدان على مزاولة مهنتهما بصفة عادية ولقد عجز كثير منهم حتى عن إعداد أنفسهم للتدريس بالعربية في المدارس الثانوية لانجاز مشروع تعريب التعليم، فأين ما يزعمه هذا الذي يقول ان الدراسة بلغة أجنبية تفتح آفاق التعليم والاطلاع؟.

ولنقارن حال هؤلاء بحال طالب مجتهد اكمل دراسته باللغة العربية في بلاده، ثم ذهب في بعثة دراسية إلى فرنسا فحصل على الدكتوراه في الفلسفة والادب بتفوق، ولما رجع إلى بلاده قام بحركة فكرية وأدبية عظيمة، درس وبحث، ونقد، وألف في أكثر فنون الادب كتبا قيمة نقل الكثير منها إلى اللغات الاجنبية الاروبية وغيرها، وما لبث ان صار عميد الادب العربي ورئيس المجمع اللغوي، والغريب في الامر انه ضرير، فبكم يقاس الدكتور طه حسين من الدارسين باللغة الفرنسية الذين ليس لهم همة وعزيمة، وإن كانوا في اتقان الفرنسية والعلم بها ربما يفوقونه؟.

والعبقري الاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد، إنه لم يكن حتى من الذين درسوا دراسة جامعية باللغة العربية ومع ذلك فإنه كان آية في الاطلاع والتفتح على أحدث الانظار العلمية والفلسفية وتغذية الادب العربي والثقافة الاسلامية بأحسن ما ظهر في عالم الفكر والمعرفة حتى أصبح قمة من قمم العلم والادب. وكانت اللغة الاجنبية التي يتقنها هي الانجليزية وإنما تعلمها في السنوات الاولى من الدراسة الثانوية.

هذان المثالان وان يكونا من عالم الادب، فإنهما يجران ذيلهما على عالم العلوم. وقصدت الاتيان بهما للالماع إلى جناية أخرى مما تجنيه الدراسة باللغات الاجنبية على الحياة الادبية في هذا الجناح من الوطن العربي.

إن بلاد المغرب كثيرا ما تشكو من ركود الحركة الفكرية وجمود القرائح وضعف الانتاج الادبي وقلة القراء ودور النشر أو انعدامها بالمرة وتأخر في الطباعة العربية، وان كثيراً من الباحثين يعللون ذلك بمختلف الاسباب، ولكنهم قلماً ينتبهون إلى السبب الرئيسي في ذلك وهو انتشار الثقافة الاجنبية وغزو الفكر الفرنسي لشباب المغرب واختطاف الصحيفة والمجلة والكتاب الفرنسي للقاريء العربي وحلول المكتبات الفرنسية محل المكتبات العربية وعود فائدة ذلك كله إلى الكاتب والناشر والكتبي الفرنسيين، ولئن دام هذا ولم يعجل بتلافيه فسوف يصبح المغرب العربي كالسنكال يفكر باللغة الفرنسية وينتج بها، ولامر ما نجد المتعلمين بها هم أكثر المتحمسين لازدواجية لغة التعليم والاحتفاظ بتلقين الفرنسية حتى في التعليم الابتدائي كما كان عليه الحال أيام السيطرة الاستعمارية، لانهم على ما يظهر يريدون أن يجعلوها قنطرة بينهم وبين الشعب يتصلون به عن طريقها ويتفاهمون معه بواسطتها.

فهذا ما فعله التعليم باللغة الاجنبية في وطن عربي كبير في الميدان الاجتماعي والقومي، ولن يكون أثره في المجال العلمي والتقني بأحسن من ذلك أثراً ولا أقل ضرارا.

ويورد اناس مشكلة المصطلح العلمي والاختلاف فيه على قلة ما وضع منه ويجعلون ذلك عقبة في طريق تدريس العلوم باللغة العربية، وما كان المصطلح ولن يكون عقبة في هذا السبيل، وأمره اهون من ذلك، فأكثر المصطلحات العلمية عالمية مشاعة بين الامم على اختلاف لغاتها، ونحن العرب لابد أن نأخذ الكثير منها كما هو من غير ترجمة، ولسنا في ذلك بدعاً من الناس، بل ان اجدادنا فعلوا ذلك فقالوا الدوسانطريا والماليخوليا والديابيطس وغيرها من مائة الالفاظ التي لم يغيروها وابقوها على حالها فضلا عن التي عربوها واجروها على الموازين العربية، فليسعنا ما وسعهم، لاسيما والمصطلح ما هو الا لفظ يحتاج إلى الشرح ولو كان عربياً، فكيف يقف حجراً في طريق تدريس العلوم بالعربية.

ولقد وضع الافراد والجماعات وأصحاب المعاجم العلمية آلاف المصطلحات التي تسهل مهمة مدرس العلوم فما عليه الا أن يجد في تحصيلها، وعلى جامعاتنا ان تزود مكتباتها بهذه المعاجم ولوائح المصطلحات وتجعلها بمتناول يد الاساتذة والمدرسين والطلبة والباحثين، ولا تأخذ أحداً من هؤلاء العزة بالاثم فيترفع عن الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوه في هذا الصدد ويستغنى عن التزود بما قدموه من ثمار يانعة طالما تعبوا في قطفها، فإن العلماء يجب أن يكون خلقهم الانصاف والاعتراف بالجميل لذويه وما نال من نال الا بالتعظيم والاحترام لاهل الفضل وما حرم من حرم الا بترك ذلك.

وأحسب ان ما يهول به بعضهم من اختلاف المصطلحات بين البلاد العربية وتعدد الاسماء لمسمى واحد إنما هو من سوء التقديز وحب الشغب والافاية لغة ليس فيها ذلك وإنك لتجد المؤلف .توضع له اللوائح الخاصة لتفسير مصطلحاته، ومع ذلك ما رأينا اهل لغة يقيمون مثل هذه الضجة التي يقيمها كتاب العربية لتوحيد المصطلحات حتى صارت نهجا متبعا، كلما وقع الكلام على تعريب العلوم الا واثارها هذا الكاتب أو ذاك ولو على سبيل التقليد، وهي كانت احرى ان تعد اجتهادات مشكورة تعين على التعريب ولا تصد عنه، ولا سيما لمن يشكون من قلة المصطلحات، كما أنها في نفسها اعني هذه المصطلحات المتعددة قليلة وليست من الكثرة بالقدر الذي يدعيه المنكرون.

على أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أصبح يمثل البلاد العربية جمعاء، قد قام بتصفية الكثير من هذا الخلط وخطا خطوات مهمة في توحيد المصطلحات المتعددة وانتقاء الاصلح الواضح والدقيق الدلالة منها، وذلك بمشاركة المجمعين السوري والعراقي ونخبة من أهل العلم والمعرفة من بقية الاقطار العربية الاخرى. فمن لم يطلع على منجزاته في ذلك فليطلبها من امانته العامة ولا يبق حائرا يردد كلاما قديما لم يكن على صواب لما قيل لاول مرة فكيف به الان وقد صار اسطوانة مملولة. والظن بل الواجب أن يستمر الوضع للمصطلحات من اهل العلم وأن تتعدد المصطلحات لذلك ولكن

مجمع اللغة والسليقة العربية أو الحس اللغوي المشترك من أبناء العروبة في المشرق والمغرب هما اللذان يختاران ويقران ما يصلح (اما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث).

هذا وفي نفسي شيء أخاف إذا أبديته أن أرمي بالمبالغة وربما ازن بسوء الظن، ولكني لا بد أن أشير إليه ولو على سبيل الاحتمال البعيد، وهو اني أرى وراء هذه الضجة التي تحتدم في هذه الايام حول صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم وعدمها أيديا خفية تحركها وتنفخ في نارها وهي ايد ليست بنظيفة ولا تريد الخير للعرب ولا للغتهم، وإنما أصحابها يرون ويسمعون حيرة بعض الاقطار الافريقية والاسيوية وخاصة الاسلامية منها التي استقلت أخيراً وملكت امر نفسها، وهي ليس لها لغة تصلح للحياة العامة اولها هذه اللغة وتريد أن تكتبها بحرف ما من الحروف الاوفق لنطقها وهجائها وكثير من هذه الاقطار تتطلع للغة العربية والحرف العربي، فلصدها عن هذا التطلع ولتشكيكها في قيمة العربية وصلاحية حرفها للكتابة الصحيحة، يوعز المغرضون بإثارة هذا الموضوع في الصحف والمجلات العربية بالذات، ويوحون بطريق غير مباشر إلى بعض اوليائهم ـ ومالي لا أقول بتواطىء مع بعضهم إلى الجهر بالحكم على العربية وحرفها بالعجز والقصور عن مسايرة ركب الحضارة العصرية وعدم الكفاية لما يتطلبه المد الثورى الذي يكتسح البلاد العربية من تطور في وسائل تحقيق البعث العربي المادية والمعنوية ومنها أداة التعبير الملائمة للعصر.

ان أولئـك الاخـوان الافارقة والاسيويين اذا سمعـوا العرب أنفسهم يرددون هـذا الكلام ويتهمون لغتهم اشنع الاتهام لابد أن يقر في أنفسهم ما يلقيه إليهم المستعمر الذي جـلا عن أرضهـم من الباب وعاد يدخل إليهـا من النافذة، لا سيما وهو ما يفتاء يمدهم بالعون والخبرة المدخولة ويقدم إليهم المشروعات الجاهزة في هذا الطلب وغيره من مطالب الحياة، ولذلك فإن المتاني والمتثبت منهم هو الذي يرجىء مسألـة اتخاذ العربية لغة رسمية له واصطناع الحرف العربي للغته، وغيره يعزم ولا ينتظر، ومن ذلك ما جرى أخيرا بين بعض دول افريقيـا من عقـد مؤتمـر تحت رعايـة منظمـة اليونسكو للنظر في وضـع أبجدية لكتابة لغاتها وتوحيدها. وهكذا نضيع على أنفسنا وعلى أصدقائنا فـرصا ثمينة لا تعوض بجدالنا وتنازعنا فيما لـو كـنا أبناء عصرنـا حقيقـة لاغتنمناها لبسط نفوذنا الروحي في أقطار العالـم، ولكنـا احرياء أن نرفع رأسنا فخرا لما لنـا من ثقافة عالمية ولغـة حيـة تعمل أكثر لغات العصر تقدما لكسب مالها من مقام وحرمة وتـأثير في حيـاة عـدد من الشعوب المنتشرة فـي أطراف المعمور.

ولا يقـال ان هذا الكلام عاطفي في مجال علمي، فإن العلم كل العلم ان ننهض بلغتنا وننشرها على اوسع مدى كما تفعل الامم الراقية ولو لم يكن في تبني لغتنا وحرفنا من طرف أمم أخرى غير عربية إلا التثبيت وزيادة الايمان

للمومنين واقناع الشاكين المترددين لكان ذلك كافيا لحرصنا عليها وعملنا على رفع لوائها في كل مكان ولقمنا بتعاون، مع هذه الاقطار الراغبة في تعلم العربية بوضع برامج سهلة وميسرة لتلقينها لابنائها ونشر مجموعة من الكتب المفيدة التي تظهرهم على كنوز الثقافة العربية لنجعلهم يتذوقون الادب العربي قديمه وحديثه ويتصلون شيئا فشيئا بالفكر العربي والتراث الاسلامي حتى يندمجوا ولو بعد حين في الشعب العربي ويصيروا من أخلص أصدقائه واقرب الناس اليه.

ان هذا «تكتيك» وليس عاطفة ولكنه يتطلب من العمل قدر ما عندنا من القول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون).

لمن تعطى جائـزة نوبل

من كلمات جبران الخالدة قوله نحن في غنى عن الاستعطاء وهي كلمة صادقة إلى أبعد حد ولكن إيمانا بها ضعيف جداً مع الاسف. ومن مظاهر ضعفه الشك في قيمنا وأخلاقنا إذا لم يزكها الاجانب، وما عانيناه منذ فجر النهضة الحديثة من تلمس وجوه الموافقة بين واقعنا الاجتماعي وقضايانا التشريعية وهذه المدينة الغربية، أعظم شاهد على ذلك. كأن مدينة الغرب قد سلمت من كل علة، وصارت هي المحك الذي يختبر بـه الزائف من الصحيح ولولا قيـام الجماعات الاسلامية المتحـررة من عقـدة الاجنبي هذه في الثلاثينات والاربعينات المنصرمـة بتصحيح هذا الوضـع لكنا اليـوم قد جرفنـا السيـل وخسرنا كل مشخصاتنـا الدينيـة والقوميـة.

وإذا كنا قد تفادينا بعض الشيء الانسياق في حبل الاجنبي من الناحية العقدية والوطنية، فإننا فكريا ما نزال مرتبطين بعربته، يتعسف بنا المجاهل كما يريد.

ومن نتائج هذه التبعية الفكرية ما نشأ بيننا في السنين الاخيرة من التغزل بجائزة نوبل للاداب وتطلع بعض أدبائنا

الكبار لنيلها، وتحسر غير واحد من الكتاب والنقاد عندنا لعدم حصول أي عربي على هذه الجائزة، اعتبارا بأنها أكبر جائزة دولية لتتويج الاداب العالمية، ومن ثم فإنهم يستنتجون من هذا الاضراب، إضراب الهيئة المشرفة على جائزة نوبل في أسطوكولم عن إجازة الادب العربي في شخص أحد أعلامه، أن هذا الادب لم يحصل بعد على صفة العالمية، وإنه أدب غير إنساني، إنما غايته المتعة الذهنية والتلاعب بالالفاظ إن كان قديما، والتقليد والاجترار، إن كان جديدا، وهكذا يشكون في أنفسهم فيشك الناس فيهم، ويكونون هم أول من يبخس بضاعتهم بعرضها في سوق الكساد.

ان أول ما يتوجه على هذا الكلام ان الادب إذ لم يعتز به أهله، ولم يغالوا بقيمته، فهو أحرى ان لا يعترف به غيرهم ولا يباليه بالة، والادب العربي ككل أدب غيره اول ما يجب ان يفرض نفسه على قومه، فيعيشون له ومعه، ويملا كل فراغ في حياتهم، ويفتح قلوبهم لمعاني الحب والجمال، ويكيف شعورهم بمقتضى دورهم في المجموعة البشرية ووسالتهم إليها، ويكون عندهم بمثابة العقيدة المقدسة فوق كل طعن وتجريح، وإذ ذاك لا يحتاجون إلى الموازين الأجنبية تنصب لوزنه وتقديره، ولا إلى المساومات المغرضة تبخسه وتضع من قيمته، بل أنهم ليستهينون بمن يروم مطاولته ويتهمون ادراكه، فترى الناس يتهافتون عليه ويحاولون معرفة ما فيه من ذخائر وكنوز.

وفي الوقت الذي كان العرب مومنين بأدبهم، متحمسين له، لم يطلبوا من غيرهم أن يقيمه ويجيزه، بل صدفوا عن كل أدب سواه استغناء به وقرة عين، حتى أنهم لما نظروا في فلسفة اليونان وعلومهم أخذوا منها ما شاءوا ولكنهم لم يأخذوا من أدبهم شيئا، لاعتبارهم إياه أدباً وثنياً يرتد بالانسانية في حافرة الجاهلية الاولى.

وكان ذلك باعثاً للقوميات والجنسيات الاخرى على دراسة الادب العربي والاقتباس منه، وفيها من كان أسبق حضارة من العرب كفارس والروم، فمن المحقق أن الادب العربي أثر في الادب الفارسي أعظم تأثير وأخذ هذا منه الشيء الكثير حتى الاوزان الشعرية على ما هو معروف، كما أثر في الاداب الاوربية عند نشأتها بالسراية من الادب اللاتيني الذي استقى غير قليل من الادب العربي على أيدي شعراء التروبادور وغيرهم في اسبانيا أثناء الحكم الاسلامي.

ومن ذلك نعلم أن التقدير يأتي من الداخل لا من الخارج، وإن جائزة نوبل ليس باستطاعتها أن ترفع أدباً ما إلى الاوج، إذا لم يكن هذا الادب رفيعاً في نفسه، لا سيما بعد التكييف السياسي الذي دخل عليها منذ قريب، حين أعطيت لباسترناك، وهو في نظر النقاد، ليس أديب قومه الممتاز ولا طبقة في الادب الروسي الحديث، وإنما قدمته الاصابع الخفية التي تسدي وتلحم في السياسة الدولية لتنال من قوم إرضاء لقوم.

وأكثر من ذلك لما أعطيت لكاتب اسرائلي غير معروف من قبل، بحجة أنه وصف كفاح شعب مخصوص من أجل إحراز كيانه، فهل جعلت هذه الجائزة الادب الاسرائلي ادبا عالمياً ام انها فضحت نفسها فقط وامدت إسرائيل بمعونة مالية على حساب السلام الذي هي اعدى اعدائه، وان رغم انف نوبل النبيل؟.

أفلم يكن من الواجب، إذا كان ما زعمته لجنة نوبل حقاً، ان تمنح جائزتها لمحمد إقبال الذي هو صاحب فلسفة وأدب رائع، انبثقت منه فعلا دولة ذات كيان مستقل وشخصية متميزة ملات فراغاً عظيماً في مجال التنمية والانشاء والتعمير في آسيا، وتتكون من مائة مليون نسمة، ولم تقم كما قامت اسرائيل على حرب ولا على اضطهاد ولا على سرقة أرض غيرها وتشريد سكانها واغتصاب أموالهم وممتلكاتهم، والتضريب بين الامم والشعوب حتى عادى بعضهم بعضاً واصبحوا مهددين بنشوب حرب عالمية لا تبقي ولا تذر من اجل نصرة هذا الظلم الصارخ والابقاء على ذلك الكيان الممسوخ.

نعم ان دولة باكستان التي تفوديت بإنشائها حرب طاحنة، كانت ولا شك، ستنشب بين سكان الهند غداة الاستقلال هي اولى بالتنويه وإجازة الاديب الذي نشأت عن دعوته وكانت ثمرة ادبه.

ولكن لو لم يكن في هذا الادب مادة (الف، سين، لام الف، ميم) (1) تلك المادة التي هي علة العلل في بخس الادب

(1) أعني : إسلام

الغربي والفلسفة والعلم والفن عند العرب، وانكار كل فضل للعرب على الحضارة الانسانيـة، والقعود لهم بكل مرصد حتى في لجنة جائزة نوبل ليلا يرتفع صوت بإنصافهم او يجهر احد بالاعتراف لهم بالجميل.

ولكي يكون القارىء على بينة من الامر ـ ما عليه الا ان يقرأ رواية (جسر على نهر درينـا) للكاتب اليوغسلافي ايفواندريتش التي نال عليها جائزة نوبل للاداب، فإنها روايـة تقطر بالحقد والتشنيع على الاسلام مجسماً في الحكم العثماني لدول البلقان، ولا يخجل كاتبها من اظهـار ارتياحـه لتقلص ظل هذا الحكم وحلول الاستعمار النمسوي محله، وان قسا على السكان وتحكم فيهم ما لم يتحكمه العثمانيون.

وهو يجعل من الحبة قبة، ويتناول الحادثة النادرة البسيطة فيبني عليها العلالى والقصور، ولا يـزال يضخمها وينفخ فيهـا ليستثير شعـور القـارىء ويحرك مكامن الغضب فيـه، هذا إذا كانت الحادثة وقعت في العهد العثماني، فإذا كانت مما حدث في العهد الاستعماري الجديد فإنـه يهونها وينفض يده منها سريعاً وإن اثرت في السكان بما يجعلهم يتأسفـون على العهد السابق.

وليقرأ من يريـد ان يتحقق من هذا الكلام، العبارات الاتية في المقارنة بين الحكم العثماني والحكم النمساوي: بعد ضروب سوء التفاهم وأنواع الصراع التي قامت في اول الامر، شعر الناس ان الحكومة الجديدة صلبة العود طويلة

الاجل كانت الحكومة غير شخصية، وكانت تمارس السلطة على نحو غير مباشر، فكان هذا وحده كافياً لان يجعل احتمالها أسهل من احتمال النظام التركي، إن كل ما يشتمل عليه الحكم الجديد من قوة ومن شراهة، كان متخفياً تحت ستار من الوقار والمهابة والتقاليد. كان الناس يخشون بأس السلطات، إلا أنهم كانوا يخشونها كما يخشى المرء الموت أو المرض، لا كما يرتعد خوفاً أمام الخبث، والشقاء والعنف، وكان معظم ممثلى الحكومة الجديدة، العسكريين منهم والمدنيين، أجانب عن البلاد، لا يعرفون السكان (1).

إن هذه العبارة من عشرات مثلها كافية وحدها في إبراز ما يكنه الكاتب المجاز بجائزة نوبل للسلام من كراهية وبغض للاسلام والمسلمين الذين حكموا بلاده بمنتهى العدل والتسامح، ولم يرغموها على اعتناق دينهم كما فعل الاسبان الذين قتلوا وحرقوا مسلمى الاندلس الممتنعين من التنصر، والادهى والامر هو أنه يقر بفظاعة الحكم الجديد وشدته، ولكنه يبرر ذلك ويقبله محاولا ان يجعل القارىء ينساق معه في رفض حكم الاتراك وتجريحه وقبول حكم النمساويين ومباركته.

فأي دس مثل هذا ومكر وخداع يشتمل عليه كتاب ككتاب (جسر على نهر درينا) الذي يشيد بالظلم في

(1) نعتمد في الانقال التي نوردها في هذا المقال على ترجمة الدكتور سامي الدروبي للرواية.

ناحية ويندد به في ناحية أخرى ولو كان دون ما يشيد به، وينفث التعصب الديني في كل حرف من حروفه على حين ترتفع الاصوات في كل مكان بالتسامح والاخوة البشرية، ومع ذلك ترتضيه لجنة نوبل للسلام وتعتبره أدبا انسانياً وتجيز صاحبه؟ ولعل تلك العبارة التي نقلناها تكفينا عن الاتيان بغيرها من العبارات التي يطمس الكاتب فيها الحقيقة ويزور الكلام ليدل على غير المراد منه، فأيام السكينة العذبة التي عرفها العهد التركي قد ذهبت الى غير رجعة، وتنظيم المدن في أيام الاتراك بترقيم البيوت مثلا يثير الشعب حتى انه لينزع لوحات الترقيم ويحرقها بخلافه في العهد النمساوي فإنه يعتبر علامة تقدم وسبيلا لاحصاء السكان والضريبة التي كانت تستخلص في أيام الاتراك بالعنف فيما يزعم، ها هي تستخلص الان بأكثر من ذى قبل ولكن بنظام، والتجنيد الذي لم يجرؤ عليه الاتراك، يرغم عليه الشبان إرغاما وينشر الحزن والرعب بين السكان، ومع ذلك فهو جائز لان الآمر به هو الامبراطور لا الخليفة إلى غير ذلك من المفارقات الغريبة التي يظهر أنها صادفت هوى في نفوس لجنة الجائزة لانها كلها طعن في الاسلام وتسويء لسمعته وتشهير به.

وهذا بله الالفاظ البذيئة وكلمات السباب التي تتجنب بحكم التثقيف والتهذيب في الكتب العادية فكيف بعيون الادب العالمي المجازة من أكبر هيئة دولية كهيئة نوبل؟

ومما يقوى الشبهة في حكم اللجنة الموقرة لكتاب (جسر على نهر درينا) بدافع من التعصب على الاسلام والمسلمين أنه لم يقتصر على التهليل والتكبير لجيش الغزاة المسيحيين والحكام النمسويين بل مدح اليهود ونوه بصفاتهم وفضائلهم في شخص يهودية تدير فندقاً وترتبط بعلاقات مـع الخارج، وبذلك ضمن الحصول على تأشيرة الدخـول لحظيرة المجازين من هيئة نوبل بلا تردد.

إننا بذلك نعلم ان هذه الجائزة إنما أرصدت للـكتاب الصهاينة والصليبيين الذين يمجدون الاستعما ويؤرثون العداوة بين الشعوب بدل الدعوة إلى السلام والاخوة الانسانية.

وما أحمد لسارتر شيئاً مـا أحمد لـه رفض هذه الجائزة بشمم وإباء واشاحته عنها واستخفافه بها بعدما ابتذلت وامتهنت ودخلتها الاغراض وتحكمت فيها النزعات، فما بـال أدبائنا الكبار يترشحون أو يرشحون لهـا المرة بعد المرة وهي تنصرف عنهم وتتدلل عليهم أعنى بصريح العبارة انها تستهين بأدبنا وتراه غير كفء لها، فهلا اخذتهم النخوة التي أخذت سارتر وسحبوا ترشيحهم، واكتفوا بالجوائز التقديرية التي ينالونهـا من حكوماتهم وشعوبهـم والاعتبار السامي الذي تلقاه آثارهم وأعمالهـم في مختلف البلاد العربية والالقاب الكبيرة التي يخلعها عليهم المثقفون والنقاد من بنى قومهم، ففي ذلك ما هو أعظم وأبقى من جائزة نوبل وما كـان على غرارها من تقدير مشبوه واحترام مدخـول.

اما أندريش الكاتب اليوغوسلافي، وقد عرفنا دخيلته وسر فوزه بهذه الجائزة، فإننا لا نرد عليه بغير كلامه، وبفقرة واحدة منه تعفي بخلفيتها على كل ما لمز به العثمانيين أي المسلمين وحكمهم لاوروبا الشرقية، وتظهر الفرق بين حكم الاسلام وحكم غيره وغير المسلمين جلياً واضحاً من حيث الاعتبارات الانسانية خاصة والعدل والنبل والترفع عن الشماتة والانتقام.

يقول أندريش متحدثا على لسان أحد الغزاة الاتراك الذي يخاطب مواطنا له اسمه علي خوجا وقد توالت الانهزامات على العثمانيين وتراجع السكان المسلمون غير مرة إلى الوراء مهاجرين: «لقد وصلنا يا عزيزي علي خوجا إلى حيث لا يعرف المرء ان يندس، الله وحده يعلم، اننا، انا والمرحوم والدى، قد فعلنا كل ما يجب ان نفعله للمحافظة على ديننا وللمحافظة على اخلاقنا الاسلامية لقد مات جدى في اوتيسه، وأغلب الظن ان قبره هنالك قد اندرس فلم يبق منه اثر وقد دفنت ابي في نوفافاروخ، ولست ادري الم تدسه القطعان المسيحية بالاقدام، وكنت اقدر انا على الاقل، ان اموت هنا في هذه البلدة التي يسمع فيها صوت الاذان، يدعو المومنين للصلاة، ولكن يظهر لي الان انه قد كتب على سلالتنا ان تبيد، وان لا يعرف احد منا قبر اسرته بعد اليوم، هذه ارادة الله على كل حال »

مرحى مرحى، فهذا اعتراف اندريتش على النصرانية وحكمها في بلاد البلقان التي احتضنت من المسلمين

الاتراك واهل البلاد الاصليين العديد من الملايين مدى عدة قرون فأين قبورهم الان، وأين مساجدهم؟ بل أين أحفادهم وسلالاتهم؟ ... والاندلس وصقلية؟ أين قبور النوابغ من علمائها وفلاسفتها واطبائها وأدبائها وشعرائها وأين المساجد فيها؟ في حين تضيق بلاد الاسلام بكنائس النصارى وبيع اليهود وغيرها من معابد الاديان الاخرى وبمدافن اهلها عليها الصلبان والشعارات المختلفة، متحرمة محروسة لا يوذيها أحد ولا تطولها يد، إن التسامح وحسن المعاملة وسعة الصدر التي امتاز بها الاسلام وحكمه والمسلمون حتى في عصور تأخرهم هي ما يقضى لهم بإنهم أصحاب رسالة وليسوا فاتحين ولا غزاة كما صورتهم يا أندريتش (ومن فمك أدينك يا اسرائيل).

ترجمة جديدة لرباعيات الخيام

كان ممن لقيتهم في رحلتي الاخيرة إلى بغداد الصديق الاديب إبراهيم العريض، ولم أشعر إلا وهو يقبل للسلام علي ببشاشته ولطفه وكان يرتدي الملابس العربية ولذلك لم أميزه أولا، وقد مضى علينا زمن طويل لم نلتق فيه، فلما عرفته عانقته عناق الحبيب وسررت بملقاه ايما سرور إنه شاعر البحرين الذي لمع إسمه بين أدباء العرب بشعره الرقيق ودراساته الادبية الرائعة.

فلأتمل بحديثه الممتع وخلقه الكريم برهة قلما يجود الزمان بمثلها، وقد جلنا في مختلف المواضيع وخلصنا إلى أحدث ما أنتجه كل منا وإذا به يحدثني عن ترجمته لرباعيات الخيام ويقدمها إلي في طبعة أنيقة مزدانة بالصور المعبرة في إخراج جميل مما عهد في كتب الصديق الاديب.

ورباعيات الخيام عمل أدبي رائع فلسفة في شعر وحقيقة في خيال قيل أن الخيام كان يذيب فيها همومه وأحزانه ويحلل الفكرة العلمية المعقدة إلى أبسط عناصرها ثم يعبر عنها بأربعة أشطار من الشعر يمسها من بعيد وتتغلغل في

مطاويها الغامضة وهي تتغنى بالخمرة والحياة اللاهية وتحث على اغتنام أيام العمر قبل فجأة الموت والعدم ومن تم كانت محل عناية الادباء والمفكرين وأهل الفتك والدعارة على السواء.

ولقد كان عمر الخيام من أكبر أدباء الفرس وشعرائهم ومن أهل المعرفة بالعلم والحكمة وخاصة العلوم الرياضية فكما اشتهر برباعياته في عالم الادب اشتهر كذلك في عالم العلم بإصلاحه للتقويم السنوي الذي كلفه به ملك شاه ابن السلطان الب ارسلان السلجوقي فقام بالمهمة خير قيام حتى أن المؤرخ الانجليزي جيبون لم يملك الا أن ينوه بتقويم صاحبنا ويفضله على التقويم الكريكوري نفسه وإن هذا العبقري كما رأينا قد طبقت شهرته الشرق والغرب وأصبحت رباعياته على كل اسان بعد أن نقلها من الفارسية إلى الانجليزية ادوارد فتزجرلد ثم ترجمت إلى سائر اللغات الحية وعدت من الاعمال الادبية العالمية الخالدة.

أما إلى العربية فكان وديع البستاني أول من ترجمها شعراً ولكنه لم يحافظ على تربيع الاشطار بل جعلها سباعية ولعله إنما دفعه إلى ذلك حرصه على استيفاء معاني الخيام وتجويد التعبير عنها، ولذلك كانت ترجمته هذه من أحسن التراجم اداء وادقها ديباجية شعرية، وترجمها بعد ذلك السباعي في مقطوعات خماسية كما ترجمها جميل الزهاوي وأحمد رامي وأحمد الصافي وهؤلاء هم الذين حافظوا على رباعيات القطع كما هي عند الخيام.

وكـان من هؤلاء المترجمين من نقلها عن الفارسية مباشرة ومنهم من نقلها عن إحدى اللغات الاوربية، وقد كـان الاستاذ العريض ممن نقـل الرباعيات عن لغتهـا الاصلية ومما امتازت بـه ترجمته انها لم تسلك سبيل النقـل الحرفي وإنما اعتمدت تمثيل الرباعيات التي تشتف من ورائها فلسفة الخيام ونظرته المتشائمة إلى الحياة مقتدية في ذلك بترجمة فتزجرلد الذي كـان يلم إلماماً واسعاً باللغة الفارسية وأدبهـا ـ ولكـنه كـما يقـول الاستـاذ العريـض ـ كـان متحرراً في ترجمته بحيـث لـم يتقيد بأسلـوب الاداء عند الخيـام وإنمـا حـرص الحرص كـلـه على التعبير عن معانيه بإنجليزية بليغة علماً بأن لكـل لغـة أساليبها الادبية التي بها يكون التأثير وهكذا بعث فتزجرلد الخيام من مرقده واسمع أوروبا صوته الرخيم بعد أن صارت عظامه كـالرميـم.

وشيء آخر مما عني به الاستاذ العريض في ترجمته هذه هو ترتيبهـا على المعاني لا على حروف المعجـم قائلا ان ترتيبها على الحروف في الفارسية إنما وقع بعد الخيام اسوة بدواوين الشعـر العربي ولا شك أن ذلك ممـا يقطـع الصلة بين معاني الابيات المتسلسلة ولذلك نسقها هو تنسيقاً معنويا لا لفظياً وزاد فطرح منها بعض الرباعيات المنحولة على الخيام والتي لا تمثل روحه ولا أدبه وإنما نسبت إليه أو حملت عليه حملا من بعض خصومه لتشويه أدبه والانتقـام منه، ولا حاجة إلى القـول أن ترجمـة الاستـاذ العريـض لـم تحد عن قالب

الرباعيات كما فعل بعض مترجميها بل التزمت التربيع في الاشطار وبذلك طابق الاسم المسمى في الاصل وفي الترجمة.

والذي علي ان اقوله ولم يقله الصديق الاديب فيما امتازت به ترجمته للرباعيات تواضعاً منه وابتعاداً عن الدعوى هو ان شاعريته المهذبة المضمخة بالطيوب والعطور، المجنحة بالرؤى والاخيلة التي عرفناها في دواوينه البديعة، قد اضفت على الرباعيات في ترجمتها العربية الجديدة حلة من الروعة والجمال جعلتها تختال بين الترجمات السابقة كما تختال الغانية الطروب، ولا أنقل أية رباعية للدلالة، على ما قلت وإنما احيل القاريء الكريم إلى التمتع بهذه الترجمة فسوف لا يشعر حتى يأتي على آخر رباعياتها قراءة منتشية مستهوية وحينئذ يعترف لصاحبها بالمقدرة والابداع.

القنداق وألفاظ أخرى

قرأت من مدة طويلة في كتاب المدارك للقاضي عياض أثناء ترجمته للامام مالك، والكتاب من أمهات كتب التراجم لعلماء المالكية وهو ما يزال مخطوطاً غير مطبوع كما لا أحتاج أن أقول، قرأت ما يلي:

«قال أبو معصب قال لنا المغيرة تعالوا نجتمع ونستذكر كل ما بقي علينا مما نريد أن نسأل عنه مالكا فمكثنا نجمع ذلك وكتبناه في قنداق ووجه به المغيرة إليه وسأله الجواب، فأجاب في بعضه وكتب في الكثير منه لا أدري. فقال المغيرة: يا قوم لا والله ما زفع الله هذا الرجل إلا بالتقوى من كان منكم يسأل عن هذا؟ يرضى أن يقول لا أدري».

وقرأت فيه هذه النبذة أيضاً:

«قال القطان: لما مات مالك رحمه الله خرجت كتبه فأصيب فيها قنداق عن ابن عمر ليس في الموطأ منه شيء إلا حديثان».

وهذه النبذة الثالثة:

« قال عتيق: قال مالك أخذت عن ابن شهاب تسعة قناديق في بطونها وظهورها إن منها أشياء ما حدثت بها منذ أخذتها بالمدينة» .

وأخيراً قرأت هذا الخبر:

« لما دفن مالك أخرجت كتبه فإذا فيها سبع قناديق من حديث ابن شهاب ظهورها وبطونها ملأى وعنده قناديق وصناديق من كتب أهل المدينة. فجعل الناس يقرؤون ويقولون رحمك الله أبا عبد الله، لقد جالسناك دهرا طويلا فما رأيناك ذاكرتنا بشيء من هذا » .

وقد استوقف نظرى في هذه الجمل لفظ قنداق وجمعه قناديق ولم أكن سمعت به من قبل فرجعت إلى لسان العرب فوجدته يقول: القنداق صحيفة الحساب» ولم يذكره في القاموس، لكن صاحب التاج استدركه عليه بهذه الصورة:

« ومما يستدرك عليه القنداق صحيفة الحساب كما في اللسان وأورده المصنف تبعاً للصاغاني في فندق وهنا موضعه وقد رجعت إلى القاموس في فصل الفاء من باب القاف فإذا نصه: « والفنداق بالضم صحيفة الحساب» وزاد عليه في الشرح قوله: « وقال الاصمعى احسبه معرباً قلت والمشهور بالقاف كما يأتي (1) » ثم رجعت إلى اللسان

(1) أي في فصل القاف من بابه وهو النص السابق مما استدركه على المتن .

في فصل الفاء في حرف القاف فإذا هو يقول: الليث: الفنداق هو صحيفة الحساب قال الاصمعى احسبه معرباً » .

علمت من هذه الاقوال ان القنداق هو صحيفة الحساب ولكن لا على سبيل القطع فإن بعضها يجعله بالفاء بدل القاف فبقى على تحقيق ذلك، ثم النظر في وجه تسمية هذه الصحف التي تخلفت عن مالك والتي رفعت إليه وفيها مسائل الفقه والعلم بالقنداق وهو صحيفة الحساب، وبعد ذلك معرفة أصله إذ كان معرباً فإن هذه الاقوال لم تنص على اللغة التي عرب منها.

وقد استنجدت بكتاب المعرب للجواليقي فوجدته قد ذكره في باب الفاء ولم يزد شيئاً على قوله «والفنداق صحيفة الحساب أعجمية معربة »، وأملت أن يكون عند صاحب شفاء الغليل مزيد من علم يشفي غلتي فإذا هو لم يذكر اللفظ إطلاقاً لا في حرف الفاء ولا في حرف القاف.

إزاء هذه المعلومات المضطربة والمراجع الشحيحة لم يبق أمامي إلا اللجوء إلى أرباب المعرفة باللغات الشرقية التي يظن أن العربية أخذت ذلك اللفظ منها. ولما لم أحصل على جواب كاف قررت البحث في معاجم اللغات المشار إليها، ولم يكن عندي منها إلا معجم صغير يسمى «الدرارى اللامعات في منتخبات اللغات» وهو كما قال صاحبه محمد علي الانسي قاموس للغة العثمانية يحتوي على الكلمات التركية والالفاظ الفارسية والافرنجية المتداولة في تلك

اللغة، مطبوع في بيروت سنة 1318 هـ. وقد جاء فيه أثناء حرف القاف ما يلي :

«قونداق: مشدود، قماط، لفافة، مؤخر الباروده. شعلة» ثم زاد قائلا:

«قوانداقجي: مصلح البواريد، محرق».

ونستفيد من هذا النص أن التعريب الذي حصل في لفظ الكلمة هو حذف الواو من بعد القاف، وأن صحيفة الحساب ليس من جملة معاني اللفظ. وقد نقلت كلام هذا المعجم في القواند اقجى لانه كان عندنا في طنجة أسرة من قدماء مهاجرى الجزائر اسمها العائلي هو القنداقجي، وكان بعض الناس يحرفه إلى الخندقجي فكلمت رئيسها يوماً في ذلك وكنت اعتقد أن الخندقجي صواب وأنه نسبة إلى الخندق، فقال لي بل هو بالقاف وأنه يرجع إلى إحدى الصنائع المتعلقة بالبندقية أو المكحلة كما نقول نحن في المغرب للبندقية. وقد صحح هذا المعنى النقل المذكور من قاموس اللغة العثمانية، وبين لنا أن تلك الصنعة تتعلق بخشبة البندقية التي عبر عنها في هذا القاموس بمؤخر الباروده وعن صانعها بمصلح البواريد.

وبعد هذا أوقفني الاخ الاستاذ محمد الخالصي من افاضل علماء بغداد على النص الاتي من المعجم الفارسي «فرهنك نفيسي ج 4 ص 2713: « قنداق، من التركية: الخشبة.

توضع فيهـا أنبوبة البندقية. الخرقـة تلف بها يـدا الطفـل ورجله وتشد بشريط».

ثم على نص آخر من معجم فارسي لسيد محمد علي، أسمه (فرهنك نظام) ج 4 ص 142

وهو: «قنداق: محرف غنداغ». ونقل التفسير الاتي عن هذا المعجم في لفظ غنداغ من ج 3 ص 747 ونصه:

«غنداغ: الخرقة يلف بها الطفل الرضيع، أصل الكلمة في السنكريتية بمعنى اللف».

ولاحظ الاستاذ الخالصي أن كلمة غنداغ لا تـزال مستعملة في اللغـة الفارسية الدارجة بمعنـى القمـاط الذي يلف فيه الوليد وقد تلفظ قنداغة أو غنداغة. كما أن العراقيين ما زالـوا يطلقون على أخمص البندقيـة كلمـة القنداق.

هذا فيما يتعلق بالقنداق بالقاف وأما الفنداق بالفاء فقد نقل لي الاخ المذكور من المعجم الفارسي (فرهنك نفيسي) قوله عنه في ص 2589 من الجزء الرابع أنه (نامه حسـاب) وترجمتها ورقة الحساب.

فيؤخذ من هذه النصوص أن القنداق هو غير الفنداق، وأن الاول أصله الغين وقد حرف إلى القاف وعرب كذلك بالقاف بخلاف الثاني فإنه بالفاء أصلا.

أما من حيث المعنى فإن الذي يطلق على صحيفة الحساب هو الفنداق بالفاء كما اقتصر عليه معجم فرهنك نفيسي ولـم

ولم يذكر هذا المعنى لذى القاف هو ولا صاحب الدرارى اللامعات. وعليه فإن المجد الفيروزبادى على صواب في ذكره في فصل الفاء من باب القاف بهذا المعنى مقتصراً عليه تبعاً للصاغاني صاحب التاج. واعتراض هذا عليه أن موضعه القاف وأنه هو المشهور غير صحيح.

ويتأيد هذا بذكر الجواليقي له في الفاء غير متردد كما تردد ابن منظور حين ذكره في الحرفين معاً.

وعلى كل حال فنحن نطلب تفسير لفظ القنداق الذي ورد في تلك العبارات المتعددة من كتاب المدارك بالقاف إفراداً وجمعاً. ومعنى ورقة الحساب بعيدة عن المراد به فضلا عن أنها انما تفسر ذا الفاء وليس هو مطلوبنا.

ونرى أن ما ورد في تفسير القنداق من أنه القماط واللفافة وقول صاحب معجم (فرهنك نظام) أن أصل الكلمة في السنكرتية بمعنى اللف، يوحي لنا بأنهم كانوا يطلقون اللفظ على الصحيفة التي تلف وتلوى كالانبوبة والجعبة، وأن هذه القناديق التي وجدت في تركة الامام مالك أو التي وجهت إليه كانت صحفاً مكتوبة تارة من وجهين وتارة من وجه واحد وهي ملفوفة كما يلف القماط على الوليد وذلك على مثال ما لا يزال الكثير منا يفعله في الوثائق والخرط ونحوها. وهو من مجاز التشبيه كما لا يخفى.

إن هذا هو ما وصلت له بعد البحث الدقيق في معنى هذا اللفظ وإذا كان عند أهل الذكر شيء غير هذا فليخرجوه لنا مشكورين.

كـثر استعمال هذا اللفظ في الايـام الاخيرة وخاصة من النقاد المحدثين كـثرة ملحوظه تنبيء عن الاصرار على مخالفة القياس بـه، وعدم الاخذ بتوجيهـات علمـاء النحـو والصـرف الذين لم يفتؤوا ينبهون على خطأ ذلك الاستعمـال، ويبينون أن صوابه هو التقويم بالواو لا بالياء.

ويظهر أن الادباء والنقاد من الجيـل الجديد وجـدوا لـه جرساً يتلاءم مع ما يدعون إليه من مذاهب جديدة، ودلالة ادق على التجارب التي يستهدفون تقديمها للناس.

إن التقويم في نظرهم أصبح عملية تختص بتقدير المثمنات وقياس المثليات على ما يفهم من كـلامهم، اما الاعمال الادبية والمذاهب الفكرية فإن وزنها وتحليلهـا يجب ان يعبر عنـه بلفظ آخر يكـون اكثر استجابة للبواعث المعنوية والمعايير الفنية، وليس هو إلا التقييم.

لست بصدد مناقشة هذا الراي، ولكني احب ان الفـت النظر إلى نص قديم ورد فيـه هذا الاستعمال، ولـم يثر كثير اهتمام من الذين تناولوه بالشرح مع انهم جميعاً من اهل العلم الذين لا يخفى عليهم امره. وهذا النص هو اثر روي في صحيح البخـاري عن الزهري في كتـاب الاكراه وبالضبط في باب: إذا استكرهت المرأة على الزنا. وهو: «قال الزهري في الامة البكر، يفترعها الحر، يقيم ذلك الحكم من الامة العذراء بقدر قيمتها ويجلد» .

وانا وإن كنت لا اجهل ما قيل في الاستشهاد بالحديث على مسائل النحو واللغة، واعرف ان لفظ الشاهد يحتمل قراءتين ولعلمهاروايتان: يقيم ويقيم(1) فإني اسوق هنا ما كتبه شراح البخاري على هذا اللفظ واستخلص منه النتيجة الطبيعية التي يؤدي إليها.

فالقسطلاني لم يزد على ان فسر يقيم بيقوم، وابن حجر قال: «ومعنى يقيم بقوم». اما العيني فنص ما كتب: «قوله يقيم، قال الكرماني ويقيم إما بمعنى يقوم وإما من قامت الامة مئة دينار إذ ابلغت قيمتها: «وبقية الشراح الذين راجعناهم لم يتكلموا على اللفظ أصلا، فكأنهم مسلمون له: كما أن الاخرين وجهوه ولم يعترضوه.

(1) وأزيد على هذا قول الفيومي في المصباح: «قام بالامر يقوم به قياما فهو قوام وقائم، واستقام الامر، وهذا قوامه بالفتح والكسر. وتقلب الواو ياء جوازاً مع الكسرة أي عماده الذي يقوم به وينتظم. ومنهم من يقتصر على الكسر ومنه قوله تعالى (التي جعل الله لكم قياما).

فقد قلبوا الواو ياء مناسبة للكسرة مع أن التصحيح لا ينافيها وهو وارد معها ومع الفتحة.

(2) وقال الفيومي أيضا: «وقام المتاع بكذا أي تعدلت قيمته به. والقيمة الثمن الذي يقاوم به المتاع أي يقوم مقامه، والجمع القيم مثل سدرة وسدر، وشيء قيمى نسبة إلى القيمة على لفظها لانه لا وصف له ينضبط به في أصل الخلقة حتى ينسب إليه، بخلاف ماله وصف ينضبط به

---

(1) الاولى بضم الياء وكسر القاف والثانية بضم ففتح فياء مشددة مكسورة.

كالحبوب والحيوان المعتدل فإنه ينسب إلى صورته وشكله، فيقال مثلى أي له مثل شكلا وصورة من أصل الخلقة»:

والشاهد منه في قوله نسبة إلى القيمة على لفظها يعني لانه لو كان نسبة لها على القاعدة النحوية المعروفة لقيل قومي بفتح ثانية بعد رده إلى أصله الواوي. وليس قوله لانه لا وصف له تعليلا لهذه النسبة وإنما هو بيان لمعناها بدليل مقابلته بالمثلي . . . وهذا اصطلاح فقهي كما لا يخفى، فإذا صح للفقهاء أن يخالفوا قاعدة النسب في قيمي مع مثلي فلا مانع أن يصطلح الادباء على جعل تقييم بالياء وإن خالف القاعدة لغرض بياني واضح.

(3) - ثم أضيف إلى ذلك ما جاء في البحر المحيط لابي حيان على الاية الانفة الذكر (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما) قال:

«وقرأ نافع وابن عامر قيما وجمهور السبعة قياما وعبد الله بن عمر قواما بكسر القاف والحسن وعيسى بن عمر قواما بفتحها ورويت عن أبي عمرو وقرىء شاذاً قوما فأما قيما فمصدر كالقيام (1) قاله الكسائي والفراء والاخفش وليس مقصوراً من قيام. وقيل هو مقصور منه قالوا وحذفت الالف كما حذفت في خيم وأصله خيام. أو جمع قيمة كديم جمع ديمة قاله البصريون غير الاخفش ورده أبو علي بأنه وصف به في قوله دينا قيما (2) والقيم لا يوصف

(1) في الاصل فمقدر كالقيام والقيام ونظن أن ذلك من خطأ الطبع.

(2) أي في قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

به، وإنما هو مصدر بمعنى القيام الذي يراد به الثبات والدوام. ورد هذا بأنه لو كان مصدراً لما أعل كما لم يعلوا حولا وعوضا لانه على غير مثال الفعل لاسيما الثلاثي المجرد وأجيب بأنه تبع فعله في الاعلال لانه مصدر بمعنى القيام فكما أعل القيام أعل هو. وحكى الاخفش قيما وقوما قال والقياس تصحيح الواو وإنما اعتلت على وجه الشذوذ كقولهم ثيرة وقول بني ضبة طيال في جميع طويل وقول الجميع جياد في جمع جواد، وإذا أعلوا ديما لاعتلال ديمة فإن إعلال المصدر لاعتلال فعله أولى. ألا ترى إلى صحة الجمع مع اعتلال مفرده في معيشه ومعائش ومقامة ومقاوم، ولم يصححوا مصدراً أعلو فعله».

ففي هذا الكلام أكثر من سند لا علال تقييم. ولا سيما قوله الاخير ولم يصححوا مصدراً أعلوا فعله. وإن كان ليس على إطلاقه، ولكن يكفي في الاعتماد مجيء قيما بالياء من قام الواوي مصدراً قرىء به في السبع.

(4) وأخيراً قال في لسان العرب بعد أن ذكر من أسمائه تعالى القيوم والقيام: وقال الفراء صورة القيوم من الفعل الفيعول وصورة القيام الفيعال وهما جميعا مدح، قال وأهل الحجاز أكثر شيء قولا للفيعال من ذوات الثلاثة مثل الصواغ يقولون الصياغ. وقال الفراء في القيم هو من الفعل فعيل أصله قويم وكذلك سيد سويد وجيد جويد بوزن ظريف وكريم. وكان يلزمهم ان يجعلوا الواو ألفا لانفتاح

ما قبلها ثم يسقطونها لسكونها وسكون التي بعدها فلما فعلوا ذلك صارت سيد على فعل، فزادوا ياء على الياء ليكمل بناء الحرف. وقال سيبويه: قيم وزنه فيعل وأصله قيوم، فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن أبدلوا من الواو ياء وأدغموا فيها الياء التي قبلها فصارتا ياء مشددة. وكذلك قال في سيد وجيد وميت وهين ولين. قال الفراء ليس في أبنية العرب فيعل والحي كان في الاصل حيوا، فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن جعلتا ياء مشددة».

ثم قال في جمع قوم: «والجمع أقوام وأقاوم وأقايم، كلاهما على الحذف. قال أبو صخر الهذلي، أنشده يعقوب :

فإن يعذر القلب العشية في الصبا
فؤادك لا يعذرك فيه الاقاوم

ويروي الاقايم. وعني بالقلب العقل».

فهذا الكلام كله يدل على تقارض الواو والياء في هذه المادة تقارضا يكاد يكون اعتباطياً لا يرجع إلى قاعدة، مما يظطر العلماء معه إلى التماس الوجوه والمخارج له، فهلا يسع الذين يقولون تقييم ما وسع أجدادهم هؤلاء؟

شجب

جاء في المعجم الوسيط ما يلي: شجب الشيء يشجب شجوباً: هلك، وفلان حزن والغراب شجيباً نعق بالبين وفلاناً شجباً اهلكه، ويقال شجب الصيد رماه بسهم فأصابه وأعجزه

عن الحراك، وفلاناً احزنه، والشيء فلانا شغله والشيء جذبه، يقال شجب اللجام. وشجبه عن حاجته. وشجب القارورة بالشجاب شدها . . . الخ.

وهذه المعاني التي ذكرها المعجم الوسيط لشجب وما تصرف منه هي بعينها الواردة في القاموس وغيره من معاجم اللغة. ولعلنا نلاحظ أن المعنى الوحيد الذي يستعمل فيه هذا الفعل بكثرة اليوم، لم يرد في المعاجم وهو شجب بمعنى انتقد وندد. يقال شجب الخطة أو السياسة الفلانية يشجبها شجباً أي انتقدها وندد بها وهاجمها وحمل عليها. وهذا كثيراً ما يرد في الصحف اليومية معبراً به عن المواقف المضادة التي يقفها مندوبو بعض الدول في المنظمات السياسية من سلوك بعض الساسة والحكومات في دول أخرى، وظاهر أن معنى هلك وأهلك وحزن وأحزن غير موافق للمعنى المراد هنا، اللهم إلا أن يستعار له معنى رمي الصيد الوارد لذلك الفعل، وحينئذ فينبغي النص عليه في المعاجم اللغوية الجديدة، وإلا وجب (شجبه) أي هلاكه فعندنا ما يغني عنه مما ذكرناه كندد به وهاجمه وما إلى ذلك.

وديان

لا يكاد الكتاب اليوم يستعملون في جمع واد إلا هذه الصيغة، أعني صيغة وديان وهي صيغة لاقياسية ولا واودة عن العرب في جمع هذا المفرد. . فجموعه التي ذكرتها المعاجم ثلاثة هي أوداء وأودية وأودايه، ويمكن أن يزاد عليها أوداه

بقلب الهمزة هاء في أوداء وهي لغة طيء وصحف بعضهم الجمع الاخير وهو أودية وأنشد عليه. وأقطع الابحر والاوادية، لكن ابن سيده نبه على هذه التصحيف وقال إن صوابه والاودابة بدليل ما قبله وهو قوله: إما تريني رجلا دعكاية . . . فنحن أولاء نرى أن ليس بين هذه الجموع المنصوصة وديان.

وأما القياس فقد أشار ابن مالك في الكافية إلى ما يجمع على فعلان بقوله:

فعلان لاسم كفعال (1) وفعل(2) — وفعل(3) الواوي عيناً وفعل(4)
وفي فعال(5) وفعال قد يرد(6) — كذا فعيل(7) وفعول قد وجد(8)
في فاعل(9) وفعلة (10) وفعل(11) — وفعلة (12) فعلة (13) وفعل(14)
في فعلان(15) وفعل(16) قد نقل — والثاني نادر ولكن احتمل

(1) نحو غلام وغلمان.
(2) كصرد وصردان.
(3) مفتوح الفاء ومضموها كتاج وتيجان وعود وعيدان.
(4) كخرب بفتحتين وخربان.
(5) كغزال وغزلان.
(6) كصوار وصيران.
(7) كظليم وظلمان.
(8) كخروف وخرفان.
(9) كحائط وحيطان.
(10) كنسوة ونسوان.
(11) كقنو وقنوان.
(12) كبركة وبركان.
(13) كقضفة وقضفان.
(14) كضيف وضيفان.
(15) نحو كروان وكروان
(16) كضفن وضفنان.

وهي ستة عشر وزناً ليس فيها وزن واد كما نرى، فماذا إذن؟

لا شك أن هذا الجمع غلط، ولعله كان قياساً من قائله الاول على مفردات الوزن الثالث مثل نار ونيران وغار وغيران وتاج وتيجان وجار وجيران ولكن هذه ثلاثية صحيحة اللام بخلاف واد.

أما سر انتشاره فيرجع فيما أظن إلى الترجمة، لان المعجم الوحيد الذي أثبته هو معجم الاب بيلو الفرنسي العربي، وقد أثبته في هذا المعجم بين قوسين إشارة إلى التحفظ بشأنه، ولكنه في الفرائد الدرية الذي هو النسخة العربية الفرنسية من هذا المعجم حذف القوسين فبقي وديان على قدم المساواة مع الجموع الصحيحة، فاعتمده التراجمة وسار هذه السيرورة التي غطت على غيره.

تحاشد الناس

هذا تعبير ورد في المدرك للقاضي عياض عما نقول فيه اليوم تظاهر الناس، وأنا لم أورده هنا إلا لتسجيل الدلالة التاريخية التي مر بها للانتفاع بذلك في المعجم التاريخي للغتنا الضادية الذي ينوى المجمع اللغوي وضعه في المستقبل القريب أعانه الله على ذلك.

فقد تعرض القاضي رحمه الله لمحنة أحد الفقهاء فقال: إن الوالي ضربه وحبسه، فتحاشد الناس، وكان بضعهم يقع عليه ليقيه بنفسه . . وأخرج إليهم الاجناد ففضوهم، فتحاشد

هنا قد استعمل في تمام المعنى الذي نستعمل نحن فيه اليوم تظاهر . . وأما فضوهم فيغلب أن نقول بدله فرقوهم. ولكنه مستعمل أيضاً.

التكميد

وهذا لفظ آخر من واد ما قبله . . وقفت عليه في كتاب اجوبة فقهية للقاضي عبد الوهاب ضمن مجموع في المكتبة الوطنية بمدريد يحمل رقم 495 وقد تعرض فيه لضمان الصناع والكماد بالخصوص وأطلق التكميد على ما نسميه اليوم بكى الثياب وهو تعبير إخواننا في المشرق أو تحديدها وهو تعبيرنا في المغرب، وأطلق الكماد على المكوجي، وكنت أحسب أن الكماد فيما أتى من أسماء بعض أهل العلم يرجع إلى الكمد والحزن» فإذا به يرجع إلى هذه الصناعة ولذلك سجلت هذه الفائدة، وهي أيضاً من الدلالة التاريخية للالفاظ.

الديـــك الاحمـــر

قال الرجل لولده: هيا ادخـل الحظيـرة وامسك الديـك الاحمر وائتني به لاذبحه. فما كان من الولد الا أن طار إلى الحظيرة وهجـم عليها وقصد إلى الديك المطلوب يريد أن يقبضه ليأتي والده بـه، فأحدث دخوله إلى الحظيرة ضجة بين الدجاج استحالت إلى ثورة، فمنه ماكان يصيح بأعلى صوته مستنكراً لهذا الاعتداء على حرم الحظيرة، ومنه ما كان يجري يميناً وشمالا ويقفز محاولا أن يطير، فيصطدم بسقف الحظيرة ويزيد اصطدامه في الطيـن بلـة، فتشتد الفوضـى ويكثر الضجيج، ويحار الولد ويداخله شييء من الخوف لما تتخذه حركة الدجاج من شكل التحدى ورد الهجوم، فيضطرب ويتخاذل ولا يدري ما يفعل بل يهم بالانسحاب وإلقاء الحبل على الغـارب، ثم يغلبه الدجاج على أمره فيقتحم باب الحظيرة وينفذ إلى الخارج ويتطاير هنا وهناك وهو يصيح كالمنتصر الذي ربح المعركة، فينكص الولد على عقبيه ويرجع إلى والده خائبا خجلا لا ينبس ببنت شفة، على أن بصره لا يفتا متنقلا بين الدجاج الذي تفرق شذر مذر في العرصة، فهذا فروج ينبش التراب بمنقاره ويستخرج من باطن الارض هنة يلتهمها

بشره، وهذه دجاجة تغني نشيد الحرية وهي تدور حول نفسها كأنها راقصة في مسرح، والديك الاحمر قد اعتلى فرع شجرة ورفع صوته بالاذان يرخمه ترخيما مما لم يملك الولد معه أن يرميه بحجر، فيطير إلى أن يقع في عرصة الجيران ويتعالى صراخه بالاحتجاج والنكير. ويحتد الولد وتثور أعصابه فيهم بتعقب الديك وملاحقة الدجاج المتناثر في أنحاء العرصة فيشير إليه والده بأن لا يفعل وأن ينصرف لحال سبيله وإلا فإن بقية الدجاج ستتبع الديك الهارب ويتعذر بعد ذلك استرجاعها والقبض عليها.

ويعدل الوالد مكرها عن ذبح الديك الذي كان قد عزم عليه ويقول: لقد حماه أجله من الموت يومه، بعد أن أعددنا له العدة ولم تبق له إلا دقائق معدودة ليصبح في عداد الاموات، ولكن ما بقي له من رزق في هذه الحياة جعله يفلت بروحه، وينتقض عزمنا ولا يكون إلا ما قدر.

قال الولد لوالده: وهل الحيوانات لها مثلنا أجال وأرزاق؟

اجاب الوالد: نعم إن كل نفس منفوسة لها رزق معلوم واجل محدود، فنحن نرى الحيوان من كل نوع، منه ما يعمر إلى أقصى عمر نوعه، ومنه ما يعتبط اعتباطاً فيموت في طفولته أو شبابه، ومنه ما يتفقأ لحماً وشحماً، ومنه ما يكاد يموت من الضعف وانهزال. ولعل أغرب من ذلك أن يكون في الحيوان محظوظ ومحروم، فبعض القطط والكلاب تحاط من أربابها بكامل العناية وتغمر بالنعم، وبعضها يطارد ويضرب من الاولاد الاشقياء ومن عمال البلديات حتى أنهم لا يتركونه

يتقمم من السباطات والازبال. إن أمر الحياة يا ولدي عجيب يقولون فيه بالصدفة العمياء فيعترضهم نظام الخلق والتكوين وما فيه من الدقة العجيبة والحكمة !البالغة التي لا يمكن أن تكون من بنات الصدف والعفوية الخرقاء، وها نحن نرى كلما تقدمت الكشوف العلمية وأزيح الستار عن أسرار الطبيعة إلا ووقف العلماء حائرين مبهورين أمام عظمة الكون وهندسة العالم، وانطوت أنفسهم على حق اليقين بأن هناك صانعاً قديراً ومخترعاً حكيماً هو الذي أوجد هذا العالم وخلقه فقدره أحسن تقدير ولقد قال رائد الفضاء السفياتي انه صعد إلى السماء ولم ير الله عز وجل. ولكنه لم يقل أنه لم يجد الله عز وجل، وتلمح الوالد من ولده العجب من صعود الرائد إلى السماء، فقال متسائلا: وهل صعد الرائد المغرور إلى السماء حقاً؟ أنه مازال يزحف في الفضاء اللانهائي كي يصل إلى القمر فقط ولم يصله بعد. وأين القمر من السماء وما هو إلا أحد الكواكب السابحة في الفضاء والتي يقدر العلماء عددها بالملايين؟ ولو وصله لما زاد شيئاً على كريستوف كولومب مستكشف أمريكا الذي غامر في المحيط المجهول بمراكب بدائية، وعلى الرغم من نجاح مغامرته لم يستول عليه الغرور الذي استولى على الرائد بأحدث الاجهزة الفنية، والاختراعات العلمية. وإني أظن أن «لايكا» التي كانت دليله الاول، لو تكلمت لكانت أحسن أدبا منه، ولقالت مثل ما قال الهدهد لسليمان عليه السلام فى عباد الطبيعة: (يسجدون للشمس من دون الله).

أما أن التاريخ يعيد نفسه، فقد قال فرعون لهامان: (ابن لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى) ولكن سخرية القدر بفرعون المتمثلة في نهاية الفاضحة كانت أعظم من غروره فيا لجهل الانسان.

وعلى كل فإن حجة العقول الراجحة على وجود الخالق وحكمته وتدبيره، ما تزال منذ القدم هي الحجة التي تفحم العلماء اليوم، إذ يرون عظم الاثر فيستدلون به على أن المؤثر عظيم. وما يفوتهم من الجزئيات ويعجزون عن تعليله، يحيلونه على العلم المحيط بجميع الكليات والجزئيات وليس هو الا علمه تعالى.

وذهب الوالد لشغله وبقي الولد يفكر فيما سمعه منه ويراقب حركة الدجاج ويقارن بين طيرانه الضعيف وطيران الرائد القوي وانقدح في ذهنه سؤال من الذي جعل الدجاج يطير بنفسه والرائد لا يطير إلا بالآلات وهو أعلم من الدجاج وأقوى؟ وأجاب نفسه بإيمان فطري: لا شك أن قدرة الله العزيز الحكيم هي التي فعلت ذلك. وزاد قائلا في نفسه: ولعل طائراً مثل الهدهد ما اهتدى لمعرفة الله إلا لما رأى عجز الانسان عن الطيران وقدرته هو عليه مع ضعفه وقلة حيلته، فعلم أن الله هو الفاعل المختار.

ولما كان المساء أوى الدجاج إلى حظيرته، ولم يتخلف منه سارب ولا هارب. وكان الديك الاحمر قد عاد قبيل الغروب إلى العرصة، ولكنه بقي على حذر حتى نزل الليل

فدلف إلى الحظيرة بهدوء، وكانت بابها قد تركت مفتوحة من أجله، فحين حصل فيها أغلقت وطويت صفحة ذلك اليوم.

ومن الغد قام الرجل في الصباح الباكر وقصد الحظيرة فتقبض على الديك بسهولة وتله إلى مصرعه بعد أن أحد سكينه، فسال الدم القاني على التراب وفقد الديك الحياة. وحين نهض ولده، وجد الديك قد قضى نحبه وسكت صوته إلى الابد، فهرع إلى والده يسأله متى؟ وكيف؟ فأجاب الوالد: هذا الصباح وبلا أدنى تعب. قال الولد: أين ذهبت تلك الصيحات المزعجة؟ وهل أغنى عنه تمرده بالامس شيئاً؟ فرد عليه الوالد: لاتقل ذلك يا ولدي، ولكن فكر في اذانه الفصيح، وتبختره في مشيته، وعرفه الاحمر ينوس على رأسه كأنه علم المغرب فوق بناية جميلة، وقل: من الذي يستطيع أن يرد له هذه الاشياء، وأن يعيده كما كان خلقاً سوياً يتحرك ويصيح، يمشي ويجيء، يأكل ويشرب، ينظر بعينين لا أصفى عنهما، يطير بجناحين من أقوى ما يكون، ينبش التراب بمنقاره، يثير الارض برجليه في تحفز رشيق كأنه راقص التويست، يملاء الحظيرة حيوية ونشاطاً، يؤدب الفراخ، يحمي الحريم ويؤثره على نفسه، يؤنس العرصة والسكان، ويوحي إلى ناظره بالبهجة والجمال . . ان هذه الاشياء وغيرها من مظاهر الحياة قد ذهبت مع ذهاب روحه ولا يقدر ان ينفخ فيه هذه الروح من جديد لا عالم طبيعة ولا كيميائي ولا طبيب

مهما علت درجتهم في العلم وعظم شأنهم في المعرفة، وأكبر عالم في الارض لا يملك ازاءه إلا أن يقف مثلي ومثلك عاجزاً معترفاً بجهله وقصوره عن أن يطب له بشيء، بل إن أكبر فيلسوف في العالم ليضطرب في هذا الموقف ولا يمكنه حتى أن يدلي برأي واضح فيه.

قال الولد: أليس الله تعالى يستطيع أن يرد إليه روحه ويعيد إليه الحياة ؟.

أجاب الوالد: بلى يا ولدي هو وحده القادر على ذلك وهو على كل شيء قدير.

عرض عن الامير مصطفى الشهابي

ألقي بدار الفكر

هذا رائد كبير من رواد النهضة العلمية واللغوية في العالم العربي، سقط في الميدان وأبقى أثراً خالدا لا يستطيع الزمان أن يمحوه.

نعم لقد نعت لنا سوريا الشقيقة ابنها البار الامير العلامة مصطفى الشهابي الذي وافاه الاجل المحتوم، في الصيف الماضي، وهو جالس إلى مكتبه يقوم بعمله الدائب في خدمة العلم ولغة الضاد، فعظمت فيه فجيعة الامة العربية وكان فقده خسارة فادحة للمجمعيين على الخصوص، لانهم فقدوا فيه العالم المختص واللغوي المتمكن الذي خدم اللغة بالعلم واخضع العلم للغة وقلما اجتمع الامران لشخص واحد من العاملين في رحاب المجامع على تقدم العلم وتطور اللغة.

لقد ترأس الفقيد المجمع العلمي العربي أو مجمع اللغة العربية بدمشق، كما سمى الان وكان الرئيس الثالث لهذا المجمع منذ انشائه. ومعلوم أن رئيسه الاول كان

هو العلامة محمد كرد علي، ورئيسه الثاني هو الاستاذ خليل مردم بك وبقدر ما كان كرد علي متضلعاً في الدراسات التاريخية والثقافة العامة ومردم بك راسخ القديم في الشعر والادب العربي، كان فقيدنا عالي الكعب في مادته العلمية واسع الاطلاع على اللغة العربية وقواعدها التي هي من أعظم الوسائل لنموها وازدهارها فهو لذلك كان المجمعي الامثل والرئيس المستكمل الشروط، والتام الادوات لمجمع علمي لغوي كمجمع دمشق.

وكان الفقيد كذلك عضواً عاملا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضواً مراسلا في المجمع العلمي العراقي وظهر نشاطه أعظم ما يكون في مجمع القاهرة الذي كانت له فيه مكانه ممتازة، سواء في أثناء المناقشة للمصطلحات العلمية الجديدة التي يعرضها المجمع على أعضائه في مؤتمره السنوي أو فيما يقدمه الى المجمع من مقترحات ومشاريع وقرارات جديدة لتطوير اللغة العربية وفتح صدرها لتقبل الصالح والنافع من كل لفظ أو تعبير لا يخالف القواعد المقررة ولا يجافي الذوق السليم.

وقد تلقى الفقيد معلوماته الاولية في سوريا ثم في اسطمبول، وذهب في بعثة طلابية سورية إلى فرنسا حيث تخرج مهندساً زراعياً أو فلاحياً كما نقول هنا في المغرب، ولما عاد إلى وطنه حين نشوب الحرب العالمية الاولى، اضطر إلى الالتحاق بالمدرسة الحربية في اسطمبول عاصمة الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على العالم العربي

آنذاك ثم انتقل إلى مدرسة البرق والهاتف الحربية، وبعد تخرجه تقلب في أعمال فنية بالجيش العثماني.

أما دراسته العربية فيرجع اكبر الفضل فيها إلى اجتهاده الشخصي ومساعدة أخيه الامير عارف احد خطباء الثورة العربية وشهدائها الابرار.

وهذه النبذة المجملة عن دراسته تبين لنا مجال اختصاصه ومدى مشاركته في المعارف العامة ومعرفته للغات الاجنبية فهو إلى جانب كونه عالما زراعياً مختصاً، ملم بالفنون العسكرية وخبير في المواصلات البرقية والهاتفية، ويتقن اللغات التركية والفرنسية لانه درس بهما.

ويعزف الانكليزية بحيث يترجم منها وينقل مصطلحاتها إلى العربية، بله تبحره في لغته القومية ومعرفته بدقائقها واسرارها إلى حد أنه اصبح يعد من اعلامها الكبار، وسنرى ان هذه البسطة في العلم هي التي مكنته من العمل العظيم الذي قام به في خدمة اللغة العربيه وإنجاز معاجمه القيمة التي سد بها فراغاً عظيماً في المصطلحات العلمية والمفردات الاجنبية التي كم تعثر المرتجمون في إيجاد مقابل عربي لها والتي سلمها له الباحثون والمختصون من الجامعيين والمجمعيين واستفادوها منه ونقلوها عنه.

فأولا: معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية وهو اكبر اعماله واجلها قدراً واعظمها فائدة؛ عكف على تأليفه نحو عشرين سنة وراجع فيه مآت الكتب العلمية والمعاجم

اللغوية، وحقق الفاظه وتثبت من صحة كل إسم يضعه فيه لاعيان المواليد الثلاثة وما لم يجد له اسماً عربيا قديماً، اجتهد في إيجاد مصطلح لـه جديد، سائغ او راجح ولا سيما في الموضوعات العلمية التي لم يعرفها اجدادنا العرب واثبته بإزاء الاسم الفرنسي والاسم العلمي.

وقد احتوى هذا المعجم في طبعته الاولى التي صدرت بدمشق سنة 1943 زهاء تسعة آلاف كلمة. ثم ان المؤلف رحمه الله نقحة بعد ذلك واضاف إليه نحو الف مادة جديدة. ولم يال جهداً في تهذيبه وتوثيقه، واعيد طبعه في مصر سنة 1957 مع مقدمة واسعة. وهو يعد الان من اهم المراجع واصح المعاجم في بابه.

وثانيا : المعجم العسكري السوري المنقول عن المعجم العسكري الكندي المزدوج اللغة فإنه يحتوي على قسمين فرنسي وانكليزي وقد اهتمت ينقله إلى العربية لجنة مختصة برياسة الفقيد وجعلته كذلك في قسمين. فرنسي عربي ويحتوي ما يقرب من اربعين الف كلمة |وانكليزي عربي، ومفرداته أكثر من القسم الاول.

وهذا المعجم هو أوسع معجم عسكري عربي وضع في البلاد العربية حتى اليوم وقد صدر في دمشق سنة 1961 وكانت سوريا أسبق البلاد العربية إلى الاهتمام بوضع المصطلحات العسكرية ففى عهد الملك فيصل الاول بالشام تألفت لجنة لهذا الغرض، ولما انتقل الملك فيصل الى العراق، استؤنف العمل فيما بدىء به في الشام وتألف من ذلك معجم

المصطلحات العسكرية العربية التي يستعملها الجيش العراقي كما وضع في لبنان معجم عسكري بالفرنسية والعربية، ووضع في مصر معجم آخر انكليزي فرنسي ألماني عربي ولكن هذه المعاجم كلها صغيرة وتتفاوت قيمتها من حيث الدقة في اختيار المصطلحات وأكبرها حجما وأصحها الفاظا هو المعجم الذي نقل عن المعجم الكندي باشراف فقيدنا الامير الشهابي كما قلنا.

ويوجد الان في الجامعة العربية اهتمام بتوحيد المصطلحات العسكرية في البلاد العربية ووضع معجم موحد لها بمعرفة لجنة من الخبراء العسكريين وغيرهم وقد انتدب مجمع اللغة العربية بالقاهرة لتمثيله في هذه اللجنة اللواء الركن محمود شيت خطاب عضو العراق في المجمع وهو اكفأ رجل للقيام بهذ االعمل.

وثالثا: معجم المصطلحات الحراجية بالانكليزية والفرنسية والعربية، مع تعريفاتها بالعربية، وقد نقلها عن الترجمة الفرنسية المعول عليها لدى منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة المعروفة بالفاو (F. A. O.) وهو يحتوي نحو الف لفظة ولهذه المصطلحات قصة بدأت سنة 1952 كما جاء في مقدمة هذا المعجم، وذلك حين عقدت المنظمة المذكورة مؤتمراً في عمان، فأوصى المؤتمر بوضع ترجمة عربية لمصطلحات الحراج وتعريفاتها، بمساعدة دوائر الحراج في البلدان العربية للمنظمة وتكلف فعلا بذلك اربعة من المختصين بالحراج في سوريا والعراق ولبنان والاردن ووضعوا مشروعا لهذه الترجمة سنة 1955 ولما اظلع الامير الشهابي رحمه الله على هذه الترجمة

وجد فيها مآخذ كثيرة ونبه مدير مكتب المنظمة الاقليمي بالقاهرة إلى ذلك قائلا ان لمجامعنا العلمية واللغوية ولجامعاتنا وللاتحاد العلمي العربي وغيرها مصطلحات لا يجوز جهلها في مثل هذا العمل فعرضت المنظمة عليه اصلاح تلك الترجمة ولما باشر النظر فيها وجدها لا يمكن اصلاحها وأن الامر يحتاج إلى ترجمة جديدة كاملة وقام بذلك فعلا معتمداً على مصطلحات الكومنولت البريطاني في ترجمتها الفرنسية كما سبق القول، فكان من ذلك هذا المعجم المثلث اللغات الذي طبع في دمشق سنة 1962 على نفقة المجمع العلمي العربي ولكن هذا لا يعني أنها مصطلحات وافق عليها المجمع أو زكاها ولذلك يقول الفقيد في المقدمة :

وتقع على تبعة المصطلحات العربية الواردة في هذا المعجم لان المجمع العلمي العربي بدمشق يسير على خطته المعروفة، وهي عدم تبنية المصطلحات التي ينشرها في مجلته أو منشوراته، خوفاً من أن يعارض بعضها ما يستقر عليه الرأي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو بعد في نظرنا اصلح مرجع يجب أن تنتهي إليه جميع المصطلحات العربية للتناقش فيها وإقرار أصلحها.

وهذا مما يدل على انصافه وتخلقه بخلق العلماء المتواضعين البعيدين عن الدعوة وتزكية النفس.

ويقول الامير أيضاً في الاعتذار عن الاشخاص الاربعة الذين تولوا ترجمة هذه المصطلحات أولا بتكليف من الفاو:

«أما السادة الاربعة الملمح إليهم الذين كانوا ترجموا هذه المصطلحات وتعريفاتها فلا لوم عليهم البتة في نظري»

فمعرفة العلوم الحراجبة شيء ومعرفة مصطلحاتها العربية شيء آخر وما برح معظم علمائنا بالعلوم الزراعية وفروعها يغلطون كثيراً في مصطلحات مؤلفاتهم وما برح الاساتيذ في مختلف العلوم الحديثة يستعملون مصطلحات عربية مختلفة المعنى الواحد، حتى أصبح ذاك داء من أدواء لغتنا لا يشفيها منه إلا توحيد أهم المصطلحات في معجم كبير انكليزي فرنسي عربي يؤلف في بضع سنوات وتعرف الالفاظ بالعربية تعريفاً علمياً موجزاً ويقوم العمل فيه على أساس قومي، فتموله الدول العربية في جامعتها، وتشرف عليه لجنة خاصة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مستعينة برهط من مشهورى علماء العرب المختصين بمختلف العلوم الحديثة وبمصطلحاتها».

وقد أتيت بهذه الجمل من كلامه كاملة، لابين فوق الاعتذار عن المترجمين المشار إليهم، نظره السديد في تأليف المعاجم العلمية ووضع المصطلحات، فليس يكفى أن يكون الشخص مختصاً بعلم من العلوم ليضع مصطلحاته، ولا أن يكون عالما باللغة العربية ليتصرف في المصطلحات العلمية ويقبل منها ويرد بل لا بد من الامرين معاً، ولذلك كانت المجامع اللغوية تتألف من العلماء المختصين واللغويين المتضلعين، فإذا اجتمع الامران لشخص أمر المعرفة باللغة والتخصص في العلم، ولابد أن يكون علما واحداً او فرعا من علم، فيجب حينئذ ان يكون من التواضع وعدم الدعوى وهضم النفس ونبذ التعصب لرأيه بالحالة التي رأينا

عليها أميرنا المرحوم، إذ فوق كل ذي علم عليم ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

هذه المعاجم الثلاثة هي مما يدخل في اختصاص الامير مصطفى، فالاول والثالث وهما من عمله الخاص، يرجعان إلى مادته العلمية التي درسها وتخرج فيها وأتقنها حق الاتقان حتى أصبح يعد من أكبر علمائها في العالم العربي وهي العلوم الزراعية والثاني وهو مما اشترك مع غيره في وضعه، يرجع أيضاً إلى الثقافة العسكرية التي حصلها بانتمائه إلى المدرسة الحربية في إسطمبول وعمله في الجيش العثماني، ولا شك أن هذا هو السر في نجاح تلك المعاجم وانتشارها واعتماد الناس إياها لان صاحبها يعرف ما يقول ويعرف كيف يقول بحكم تمكنه من لغته العربية وامتلاكه لزمامها على ما ألمعنا إليه سابقاً.

وقد نعرض في كتابه (المصطلحات العلمية) الى ذكر المعاجم الاعجمية العربية الشاملة لعلوم مختلفة فقال إنها لا يمكن أن تكون جميع مصطلحاتها العربية صحيحة أو صالحة، وراجحة، لانه ليس في مقدور الفرد أن يتقن علوماً عصرية كثيرة وأن يحقق جميع مصطلحاتها، وأن يميز الصالح منها من غيره. وضرب مثلا بمعجم لاروس القرن العشرين، فقال انه عد أسماء 290 عالما وأستاذاً شاركوا في تصنيفه، وأحصى أسماء 77 عالما زراعيا كتبوا بحوث معجم لاروس الزراعي المطبوع سنة 1921 وهو معجم موجز يقع في مجلدين.

ثم إن الموضوعات العلمية شيء ومصطلحاتها شيء آخر، ولاسيما المصطلحات العربية التي كثيرا ما تكون أشق من

معرفة الموضوعات العلمية نفسها فالذي يلم بموضوع علم في لغة أجنبية لا يستطيع أن ينقله الى لساننا ما لم يجد له مصطلحات عربية يركن اليها. أما إذا عن له وضع مصطلحات من عنده دون أن يكون أهلا لذلك فإنه يخبط خبط عشواء.

قال ولذلك كثرت الاغلاط في المعاجم الاعجمية العربية الشاملة التي صنفت في عصرنا هذا، على ما لاصحابها من فضل ومن ثقافة واسعة ومنها معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور شرف الذي أصاب صاحبه في كثير من الفاظه وأخطأ ايضا في كثير منها. ولو تجاوزت حدود اختصاصي وعملت عمله، لما قلت اغلاطي عن اغلاطه. ولكن لبعض علمائنا رأيا خاصا في صنع المعاجم، فهم يظنون أن المعجم الكبير هو الذي يدل على فضل صانعه، على حين أن الادل على الفضل إنما هو تصنيف معجم صغير تكون الفاظه العربية العلمية كلها أو جلها الفاظاً صحيحة أو راجحة.

ان هذه الروح العلمية التي كان ينطوي عليها الفقيد والنظر الدقيق الذي له في وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية، هما اللذان اهلاه لان يكون على رأس المجمع العلمي العربي بدمشق، وأن تكون له تلك المكانة البارزة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة التي جعلته يوجه ويقترح ويباشر مهمة هو من أقوى الناس عليها وأكثرهم اضطلاعاً بها، الا وهي الوضع والتقرير للمصطلحات العلمية والوسائل التي يتوصل بها إلى وضعها.

ولقد بلغ من اهتمامه بهذا الموضوع ان افرده بتأليف خاص، جمع فيه محاضراته التي ألقاها على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية وهو كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث. ويعد هذا الكتاب من أهم أعماله التي خدم بها اللغة العربية وفتح أمامها آفاق التطور والنمو. فقد أرخ فيه للاصطلاح قديما وحديثا وقعد قواعده وسن قوانينه وضمنه أهم القرارات التي صدرت عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة في التعريب والاشتقاق والقياس والنحت والتوسع في بعض الاحكام النحوية والصرفية وكتابة الاعلام الاجنبية وغير ذلك بحيث مهد السبيل وعبد الطريق لكل من يعني بهذا الشأن ويهمه ازدهار لغته من أبناء العرب المختصين وهو يشرح هذه القرارات ويبين فائدتها لاثراء اللغة ووضع المصطلحات التي هي في حاجة إليها، ويعبر عن سروره بها كما لو حصل على شيء ثمين أو ظفر بأمنية عزيزة.

ومما يجدر ذكره أن بعض هذه القرارات كان من اقتراحه وطلبه. على أنه إذا كان في القرار ما ينتقد أو يستدرك، وهذا كثيراً ما يكون في قرارات المجمع القديمة، فإنه يعبر عن رأيه فيه بكل حرية ويناقش ويجادل. ولا يسلم بحال. ولنضرب لذلك مثالا بألفاظ التصنيف في النبات والحيوان التي ما فتيء يعالجها ويتناول الكلام عليها في المجلات العلمية منذ سنة 1930.

ولما تأسس المجمع اللغوي ووضع لها ألفاظاً تختلف في بعضها

عما كان يراه ونازع فيه غيره من العلماء، لم يسلم للمجمع في ذلك وبقي يتمنى عليه أن يعيد نظره في هذه الالفاظ. ومما عبر به عن عدم رضاه بها في إحدى مقالاته هذه الكلمة: إذا قال أحد النحاة أموت وفي نفسي شيء من حتى، فأنا أقول أموت وفي نفسي شيء من الالفاظ العربية التي يجب استعمالها في تصنيف النبات والحيوان:

ولعله كان حرياً أن يقول هذه الكلمة مرة أخرى في كتابة الجيم غير المعطشة أو الجيم المصرية كما يعبر عنها أحيانا. فقد طالما ندد بكتابة الاخوان المصريين لها بصورة الجيم العربية المعطشة، ونادى بأن ذلك غير صحيح، وأن هذه الجيم يجب أن تكتب بصورة الكاف فوقها خط أفقي كما يكتبها الاتراك والفرس او تكتب غينا معجمة كما عربها القدماء لانها حرف أعجمي غير عربي، والاكثرية الكاثرة في الشعوب العربية لا تنطق الجيم إلا معطشة ولا تعرف هذه الجيم الاعجمية، وفي مصر نفسها إنما ينطقها كذلك سكان القاهرة فقط، إلى آخر ما كان يقوله، ونقوله نحن أيضاً كلما عرضت هذه المسألة على أعضاء المجمع اللغوي بالمناقشة.

ونزيد نحن فنقول إن المسألة قد عالجها ابن خلدون من قبل واقترح لكتابة هذه الجيم صورة الكاف منقوطة بثلاث نقط من فوق، وبرغم أنه قد اتخذ قرار قديم في المجمع برسم هذه الجيم غيناً وجيما فإنهم في المجمع نفسه ما يزالون يرسمونها جيما عربية

فقط، وما يزال الاشكال الذي يترتب على ذلك قائماً.

ولهذا نقول أن الفقيد العزيز لابد أن يكون مات وفي نفسه من كتابة الجيم غير المعطشة شيء، إلى جانب ما فيها من ألفاظ تصنيف الحيوان والنبات.

وإذا كانت هذه الكلمة مما عبر به عن غيرته على اللغة العربية وحرصه على تحقيق ألفاظها واختيار مصطلحاتها، فإنها أيضا من دعاباته الجميلة، وكان رحمه الله رضى الخلق طيب النفس كريم الشيم، فلا يستغرب ، من صفاته الدعابة والمزاح.

وللفقيد كتب أخرى غير ما ذكرت، ولكن ميزته الخاصة التي عرف بها، هي ما في كتبه هذه التي ستبقى ذخراً للعربية وأبنائها ومرجعا أساسيا للعلماء والباحثين على مدى الزمن.

كما أنه تقلب في وظائف عالية وكانت له مكانة اجتماعية مرموقة ويد في إصلاح الوضع الاقتصادي والتعليمي ببلاده أثناء ولايته لوزارة الاقتصاد الوطني ولوزارة المعارف فما دونهما في وطنه سوريا، ولكن ما قام به من أعمال علمية عظيمة وخدم به الامة العربية جمعاء، وهو الذي المعنا إليه في هذه الكلمة، كاف لتخليد ذكره ولعده في رجالات العالم العربي الذين نهضوا بأمتهم وعملوا على تبوئها المكان اللائق بها بين الامم والشعوب، فالوزارة والولاية والمناصب جميعها تذهب مع أصحابها ولا يبقى إلا العمل

النافع والعلم الصحيح الذي يورثه الشخص من بعده ويستمر النفع به حتى بعد وفاته.

وبعد فقد ولد الفقيد سنة 1311ه الموافقة لسنة 1893 وتوفي سنة 1388 الموافقة لسنة 1968 رحمه الله رحمة واسعة وعوض الامة العربية منه خيراً.

الترجمة أم التعريب

أثار حديثي عن المرحوم الامير مصطفى الشهابي في دار الفكر، مناقشة بين السادة الحاضرين في موضوع مهم، وهو الترجمة المعنوية والنقل الحرفي للمصطلحات العلمية والتقنية إلى اللغة العربية، وايهما اولى بالاعتماد لسد الحاجة وأثراء لغتنا الضادية التي ما تزال تشكو من الفقر في هذا الباب. وطلب منا الاخ الاستاذ عبد الكريم غلاب الادلاء برأيي في الموضوع، وهو ما أجمله في هذه الكلمة القصيرة.

ان كلا من الترجمة المعنوية والنقل الحرفي لا غنى عنهما في هذا الصدد، كما أن لكل منهما مقاما لا يصح أن يعدل به عنه. وذلك هو ما درج عليه العرب الاولون. وهو ما تسير عليه المجامع اللغوية في العالم العربي اليوم. فلقد قال أجدادنا عند نقل العلوم الكونية إلى لغتهم على سبيل الترجمة المعنوية: علم الحساب والجمع والطرح والضرب والقسمة، والطبيعة والعناصر، والمنطق والمقولات وغير ذلك من المصطلحات العلمية ولم ينقلوها بألفاظها الاجنبية لما وجدوا لها الفاظا تؤدى معناها بالعربية. وقلنا نحن في هذا

العصر: علم النفس والذرة والوجودية والنسبية واستحضار الارواح والالتزام والاشتراكية والشيوعية والتخصص، وما لا يحصى من الالفاظ الاصطلاحية، ان كان في العربية متسع لمعانيها لا يجوز معه تخطي مادتها الاصلية الى غيرها من اللغات الاجنبية.

وهذا عدا آلاف من الفاظ الحياة العامة والمستحدثات الحضارية التي سميت باسماء عربية أصيلة عن طريق الترجمة المعنوية أو ما يوازيها من التوسع في دلالة اللفظ بالمجاز والاستعارة كألفاظ البرق والهاتف والسيارة والطيارة والقطار والباخرة والغواصة والجريدة والمجلة والتمثيل والمسرح والكلية والجامعة والادارة والكشافة والضابط والمفتش والعجلة والمقود والالة الكاتبة والمسجلة والاسطوانة والمجهر والمنضدة والمشرحة والممرضة والمضيفة وما إلى ذلك مما هو وظيف الترجمة المعنوية التي أدت للغة العربية خدمة عظيمة لا تنكر، ولا تزال تؤدى أعظم الخدمات في نقل كل ما يجد من المعاني والاشياء بلسانا العربي المبين، مستفيدة من سعة مادته، وتعدد وسائل نموه.

إن ما كان من قبيل تلك المصطلحات وهذه الالفاظ لا يصح فيه بحال الا الترجمة، ونقله بالحرف من اللغة الاجنبية إنما يدل على قصور الناقل وعدم تمكنه من اللغة العربية، كما حدث لبعض الناقلين الاولين من السريان وغيرهم حين قالوا في علم الحساب ارتماطيقي وفي المقولات قاطيغورياس وفي الطبيعة فيزيقي وما اشبه ذلك. ولو جرى الامر على منوال

هؤلاء لاستعجم اللسان العربي ولاضمحل بيانه في غمرة الطمطمانية الاجنبية.

أما النقل الحرفي فمجاله غير مجال الترجمة، وهو ضرورة تقدر بقدرها كما يقول الاصوليون. أي اننا لا نلجأ إليه إلا إذا لم نجد كلمة عربية قديمة تؤدي معنى اللفظ المنقول، أو تعذر علينا إيجاد كلمة عربية بمعناه.

وهو في اللغة يسمى التعريب. قال في لسان العرب: «تعريب الاسم الاعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول عربته العرب وأعربته أيضاً». والمعرب هو ما استعملته العرب من الالفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها، وهو موجود في العربية قديماً بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الامم وأخذهم من لغاتهم ما لا نظير له في العربية، وليس في الامر غضاضة، فما زالت اللغات يقتبس بعضها من بعض، والعربية نفسها قد أخذت منها اللغات القديمة والحديثة كثيراً من الالفاظ، لا سيما والعلماء يشترطون في تعريب اللفظ الاعجمي أن يصاغ على ابنية كلام العرب وأوزانها إلا أن يمتنع ذلك، وبهذا يصبح اللفظ المعرب من جملة ألفاظ اللغة العربية تجري عليه احكامها ويعامل معاملتها. ومن ثم دخل المعرب حتى في القرآن الكريم ولم يكن مخلا بعربيته وكونه في الذروة من البلاغة.

واللغويون القدماء يحتاطون في هذا الامر ولا يسمون معرباً الا ما عربته العرب في جاهليتها أو صدر الاسلام، واما ما عرب بعد عصر السليقة فإنهم يسمونه مولداً. وهم

يعدون المولد من قبيل العامي ولكن مجمع اللغة العربية، قرر إجازة التعريب ورد الاعتبار إلى المولد فذكر كثيراً منه في معجمه الوسيط ومما جاء في قرار المجمع: « يجيز المجمع أن يستعمل بعض الالفاظ الاعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم ».

وهكذا نرى ضيق مجال التعريب عن الترجمة لتقييده قديماً وحديثاً بالضرورة ومساس الحاجة، وكونه مع ذلك ينبغي أن يجاري طريقة العرب في التعريب أي أن يخضع لاوزان الكلمات العربية وأبنيتها الا في حالات خاصة حين يستعصى اللفظ على الصياغة العربية فيوخذ كما هو. وهذا أكثر ما يقع اليوم في المصطلحات العلمية الغربية، بل أن التعريب من الاساس انما يلجأ إليه كما سبق في حال تعذر وجود لفظ عربي للمصطلح الاجنبي سواء بالوضع أو الاشتقاق أو النحت أو غير ذلك، فدائرته ضيقة جداً، لان التتايع (بالياء) فيه يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه من تشويه جمال اللغة العربية وفقدها لخاصية البيان والوضوح، ناهيك أنهم وضعوا علامات للمعرب يعرف بها، منها وجود النون والراء في أوله كنرجس أو الزاى بعد الدال في آخره كمهندز، ومنها أن يجتمع فيه الجيم والقاف كالمنجنيق ومنها أن يخرج عن أوزان الاسماء العربية كابريسم وغير ذلك، وليس هذا إلا من باب الحفاظ على سلامة النطق العربي وخلوص المفرد من تنافر الحروف،

فإنهم قالوا إن هذه الحروف التي جعلت علامة على التعريب لا تكون في كلمة عربية الاصل.

هذا وقد ألف في المعرب كتب كثيرة اشهرها كتاب المعرب من الكلام الاعجمي لابي منصور الجواليقى مطبوع معروف. وكتاب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي، مطبوع أيضاً، والمراد بالدخيل المعرب فإنه يسمى بذلك ايضا، ومن كتب المعاصرين فيه كتاب التهذيب في أصول التعريب للدكتور أحمد بك عيسى وهو مطبوع متداول.

وأظن أنه قد وضح مما تقدم أن مدلول التعريب في الاصطلاح ليس هو ما يطلق عليه هذا اللفظ في المغرب، فإنه هنا إنما يراد به نقل الدواوين أي الادارة إلى العربية وهو عمل قام به رجل واحد يسمى صالح بن عبد الرحمن في خلافة عبد الملك بن مروان، ونحن قد جندنا له أهل المشرق والمغرب ولم نحقق منه شيئا.

والناس ألف منهم كواحد
وواحد كالالف أن أمر عنى

كتاب
ليسقط الصمت

ظاهرة غريبة في أدبنا الحديث، يلاحظها القارىء والناقد معاً، وهي عدم مساهمة العنصر النسوي في انتاجه، بالرغم من تفتح آفاق المعرفة أمام المرأة المغربية، ومشاركتها للرجل في بناء المجتمع الجديد منذ فجر النهضة.

هل ذاك لان الاعمال الادبية لا تستهوى المرأة عندنا كما تستهويها الشؤون الاجتماعية التي لها فيها نشاط مرموق؟ أم لان تكوينها الثقافي لم يكن من القوة بالمثابة التي تجعلها تسهم في الحياة الادبية اسهاما يسد الفراغ الذي نحسه في هذا المقام؟.

أنا لا أتكلم على بعض الكتابات الانشائية وبعض الاعمال التي قد تصنف في هذا اللون أو ذاك من ألوان الادب، مما صدر عن بعض الاوانس والسيدات، وإنما أتكلم على الانتاج الخصب الذي يتلاحق ويتكاثر بحيث يكون حصادا فكرياً تتلمح شخصية صاحبته من خلاله، ويقال في حقه هذا أدب!.

ولعل الامر أن يكون راجعاً إلى ضعف العزيمة وقلة المصابرة أكثر من رجوعه إلى فقد الهواية وعدم استكمال الثقافة. فلو أن كاتبة المقالة أو الاقصوصة التي ظهرت منذ سنوات عديدة، عززتها بثانية وثالثة، لكان لنا اليوم حصيلة من الادب النسوي نعتز بها، ولكنا نعد من أديباتنا بضعة أسماء ـ على الاقل ـ تدفع تهمة العقم الأدبي عن الجنس اللطيف.

وكما يقول المرحوم عباس محمود العقاد:

، ان تسلني فحجتي بيدي: زهرة الربيع

هذه فتاة رائدة، جندت نفسها لخدمة الكلمة، ولم تعرف انقطاعا ولا فتوراً، فلم تلبث أن تردد اسمها في الاوساط الادبية، وهي اليوم تقدم لنا كتاباً من رقم يراعتها يحمل اسم « ليسقط الصمت».

أنه اسم معبر، أرادت به الآنسة خناثة بنونة أن تخرق حجاب الصمت الذي يلف المرأة المغربية، لتبرهن على استبسالها في معركة الحرف.

والآنسة خناثة أديبة من الجيل الطالع الذي نبغ في عهد الاستقلال. ومنذ لمع نجمها وهي تتحفنا بزهرات منثورة من أدبها الغض، وقد أنشأت مع رفيقات لها مجلة نسوية وأطلقت عليها اسم شروق، وهو كذلك اسم يرمز إلى معنى الانبعاث والتطلع والنهوض. فأعمالها تهدف إلى غاية، تداريها أحياناً بالاسلوب الرمزي، وتثور أحياناً فتصرح بها في غير مواربة ولا تحذلق.

وإذن فنحن بإزاء كاتبة ثائرة، ولكني أحسب أن ثورتها إنما هي من فورة الشباب وحماسة الريادة. ومن منا لم يثر في سن التفتح وانطلاقة الوعي الاولى؟ نعم إنها ولا شك كاتبة ملتزمة بقضايا جنسها ومجتمعها المتخلف ومن أجل ذلك أنشأت مجلة شروق وأصدرت كتاب ليسقط الصمت.

وهو كتاب من أدب المقالة والقصة، يتناول موضوعاته من صميم الواقع المغربي والعربي، هذا الواقع الذي ترفضه الكاتبة وتعتبره مسخا للانسانية وتزييفاً للمثل والاخلاق. ومن ثم فهي تتداعى مع أفكار الطوباويين وأحلام الفلاسفة التي لم يجد المصلحون من قديم الزمن عزاء فيما عداها.

وليس في موضوعات ليسقط الصمت قضية كبرى تستعصى على العلاج باستثناء قضية فلسطين التي أذابت الكاتبة حبة قلبها تحسرا عليها.

وباقي الموضوعات من القضايا الصغيرة المرتبطة بالنفاق الاجتماعي والعبث والضياع ولذلك قلت في ثورتها انها ثورة شباب وثورة الشباب أكثر ما يؤججها صفاء النفس ورهافة الحس، وناهيك بهما عند فتاة رفيعة التهذيب مثل كاتبتنا!.

والذي يلفت النظر في الكتاب هو الاسلوب الجميل الغني بالتلاوين والمليء بالرموز. وقد طاع هذا الاسلوب للانسة خناثة فلم يخنها في صفحة من صفحات الكتاب، مما يدل على تمكنها منه وأنه يوشك أن يكون فنها

التعبيري المفضل. وقد أذكرني بأسلوب الآنسة مي زيادة التي أتمنى لكاتبتنا أن تخطو خطواتها في مجال النبوغ والابداع، وأعيدها بالله من نهايتها المحزنة.

وكنت أريد أن أحلل أحد فصول الكتاب، واخترت بالفعل فصل حكاية لمسة، ولكني رأيت ذلك يطول وربما حمل على غير محمله.

والمقصود على كل حال بهذه الكلمة ليس هو التشجيع فخناثة بما عندها من استعداد وطموح في غني عن التشجيع، ولكنه الانصاف لها ممن يريد منها ما أراده المتنبى من زمنه في قوله:

أريد من زمني ذا، أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

دفنــا الماضــي

صــديقـي الاستـاذ الاديــب السيد عبد الكــريـم غلاب.
تحية الاعجاب والتقدير.

أعدت قراءة روايتــك الرائعة دفنـا المـاضي. وكـنت قـرأت كثيراً من فصولها منشورة في العلم، بحيث كان لي مندوحـة عن عـدم قراءتهـا من جـديـد، كما هو دأبـي غـالبـاً فـي الاكتفاء بالقـراءة الواحدة، لاي كتـاب أو أثـر أدبـي حتى لو بعد عهدي بـه أو كـانـت قراءتي لـه عابرة غير مستوعبة.

إن مـا يجب علينا أن نقـرأه كثير، فلذا لا يحق لما قرأناه أو ألممنا به في الجملة ان يشغلنا عما لم نقرأه بعد. ولــكن رائعتك بحجمهـا الضخم الذي لـم اكن اتصورهـا عليه، ومظهرهـا الطباعي الانيق، كـانت ذات جاذبية قوية، يضاف إلى ذلك ان هذه الفصول التي لم أقرأها في العلـم، ومنها الفصل الذي يعطيها اسم دفنا الماضي، جعلت تراودني على القـراءة الموصولة المتكاملة، فلم اشعر إلا وانا منكب عليهـا حتــى اتممتها.

والغرض من هذا ان اقول ان المتعة التي وجدتها في إعادة قراءتها، كانت باللغة الغاية حتى بالنسبة إلى الفصول التي تحققت إني قراتها. هل اعزو ذاك إلى نصاعة البيان وروعة التصوير وعمق التحليل؟ ام إلى شيء آخر؟ وهو انها نقلتني إلى هذا الماضي الحافل بالاحداث والمغامرات البطولية التي كان الفرد المغربي يخوضها بإيمان صادق كدنا نفقده اليوم، وزجت بى في جو المجتمع المغربي الذي عرفته ونشأت فيه والذي كون بروح المحافظة وهيمنة التقاليد حداً فاصلا بين التطور الذي سعيناً إليه والاندماج التي نتردى فيه الان؟!

إن الامر اهم من اسلوب الكتابة وطريقة العرض، فليكن هذا الاسلوب ما شاء، سرداً او حواراً او شيئاً مركباً منهما، فالعبرة بالمؤدى لا باللفظ ولا بالتعبير. ولن اخادع نفسي بلغة الرواية عن محتواها فيكفي هذه اللغة من القوة انها ادت ذاك المحتوى العظيم ولم تبخس منه شيئا.

يكفيها انها سجلت واقع الكفاح الوطني من اجل الاستقلال تسجيلا صادقاً، وشخصت حوادثه بظروفها وملابساتها البيئية والنفسية التي يغفل عنها المؤرخ فيشتغل بالاسماء والارقام مضيعاً اعمق معاني الحادث وآثاره. ويكفيها انها ابرزت خصائص مجتمعنا العريق في الحضارة ومفاهيمه التربوية والخلقية التي لم نستبدل بها ما هو احسن منها في مجمع بائخ يحاول ان يفرض نفسه علينا فرضاً، وليس منا من يرضي عنه بحال من الاحوال.

لكم كان اعجابي شديداً بشخصية الحاج محمد الذي يمثل الزوج والاب ورجل الاعمال الناجح في العهد القريب الذي أدركناه! انه بالرغم من أميته كان يتصرف في جميع الامور على بصيرة مما ياتي وما يذر، وكان نفوذه في البيت يجعله رئيس الاسرة بحق، وكان يفرض احترامه على زملائه التجار وزبنائه المتعاملين معه من فلاحين وغيرهم، وكان ذا مروءة ودين يمنعانه من كثير من المواقف المريبة، فإن كان قد افرط مثلا في استعمال سلطته كأب، فان ذاك على كل حال خير من فقد بعض الاباء اليوم، لسيطرته على بيته، مما أدى إلى انحلال الاسرة وفساد المجتمع بالشكل الذي نعرفه جميعاً.

وتسري الحاج محمد بالياسمين وانجابه منها محموداً ورعايته له كيفما كانت هذه الرعاية، امر يستوقف النظر، أنا لا اوافق على التسرى مطلقاً واعتبر ان هذا عيب من عيوب المجتمع القديم احسنت روايتك في اظهاره وعدم التستر عليه، انما إذا قارنا هذا العمل بما يصدر من اشخاص من طبقة الحاج محمد في مجتمع اليوم، مما لا حاجة لذكره، ويترتب عليه فضائح ومآسي لغير واحدة من مثل الياسمين وغير واحد من مثل محمود، ثم لا يتحرك ضمير أحد في ذلك لانه يعتبر عملا (طبيعيا)، وجدنا أن الذي يجرح ويأسو اقرب إلى الانسانية ممن يجرح ويترك الجرح يثعب دما.

أما عبد الغني فإنه ان كان يمثل جيل الضياع في

مجتمع الامس، فكم لـه من نظيـر في مجتمع اليـوم، على انتشـار التعليم وانفساح مجالات العمل.

ولا اتتبع شخصيات الـروايـة كلها وان كـان لابد من التنويـه بشخصية عبد الرحمـن، ذلك النموذج المثالـي لشـاب الجيل الماضي الذي قهر الاستعمـار وكان حـريصا على تطور المجتمع المغربي في دائـرة حضـارتـه الاصليـة وتقـاليده الحميدة، حتى أنـه كبت مشاعره حبـه لفتاة أجنبيـة كان على وشك الارتباط بهـا إلى الابد، ليـلا يدخـل على أسرته عنصراً غـريباً لا تنسجم واياه، أو يضطر إلى اعتـزال مجتمعه الذي يعمل جاهداً لتطويره وترقيته!

هذا وجه الالتزام في روايتك ولنسمه الالتزام الاجتماعي، وهو إلـى الالتـزام الوطني الذي طغـى على الروايـة حتـى كاد في الفصـول الاخيـرة يغطي على حـوادثها، أقول أن هذا الالتزام بنوعيه يضفي على روايتك صبغة العمل الادبي الجـاد الهادف. فيستبعدها من أن تكون أدبا انشائيا انمـا يراد بـه تزجية الوقت والمتعـة الذهنية. وانا لو كـنت فـي مقام الحكم لما ترددت أن اعتبرها الرواية المغربية الاولى وأقضي لصاحبهـا بأذه الروائـي المغـربـي الاول، ولـكـن الحكم هكذا بعمل واحد يكون من المجازفة أقـرب، ولو أنك نسبت إلى فيما كتبته عن محضراتي في الادب المغربي الحديث إني حكمت لاشخاص أو وصفتهم بانهم قصاص، لمجرد أنهم كتبوا بعض القصص، فلـو سـاغ لي ذلك لكنت أنت اولى بهذا الحكم!

وبعد فانا إن كنت أعجبت بالحوار الذي جرى بين عبد الرحمن وعبد العزيز واقتنعت بانتزاع اسم الرواية من مضمونه فإني لم أقبل هذا التأكيد على دفن الماضي أثر الفراغ من دفن الحاج محمد، لما قدمته من إعراب عن إعجابي بهذه الشخصية ومقارنة بينها وبين أمثالها في المجتمع الراهن، الذين لا يطوانه ولا يطول مجتمعهم مجتمعه. وكذا، لا أوافقك على هذه النهاية السريعة التي جعلتها لحياة محمود، فلعلك أردت أن تتخفف منه في حين اننا ـ القراء ـ كنا نريد منك أن تمتعنا به أكثر. وهذا مع تسجيل الاعتراف ببراعتك التامة في قتله!

اهنيك بهذا الانتاج الخصب القيم، واهني الادب المغربي في ضمن الادب العربي بمكاسبه الطائلة من قلمك السيال، واسلم للفكر ولصديقك.

ترجمة الواعظ البغدادي
صاحب الوتـريات

تحية لبغداد ومجمعها الموقــر

كانت الدعوة إلى عقد المؤتمر الثاني والثلاثين لمجمع اللغة العربية في عاصمة الرشيد، مناسبة حملتني على الاهتمام ببعض الموضوعات التي كنت أفكر فيها من حين لآخر، وأرجىء الاشتغال بها إلى أن أجد فراغاً من الوقت أصرفه إليها. ومنها إعادة النظر في تحقيق الاربعين الطبية وشرحها لعبد اللطيف البغدادي الذي كنت نشرته من غير تحقيق منذ سنوات خلت. ومنها كتابة ترجمــة للواعظ البغدادي صاحب الوتريات، بصفته أحد المغتربين الذين فارقوا ديارهم وأوطانهـم حباً في جوب البلاد وطلبا للمعرفة، فتقطعت بهـم الاسباب في ديار الغـربة، وغابت أخبارهـم ومصائرهـم عن أبناء وطنهم ومؤرخي جيلهم كما غابت أوليتهم ونشأتهم عن أهل البلد الذي استقروا فيه فضاعت بسبب ذلك معالم حياتهم وجهلت ترجمتهم بالمرة أو كادت.

وقد كان من هؤلاء المغتربين من حررت ترجمته في نطاق التراجم المغربية التي يتضمنها كتاب شخصيات مغربية أو كتاب ذكريات مشاهير رجال المغرب ومنهم من لم يكن مغربياً فأثبت ترجمته في احدى هذه المجموعات الادبية العامة التي أنشرها بأسماء متنوعة كمجموعتي التعاشيب وخل بقل.

وهكذا كانت هذه المناسبة الطيبة حافزا لي الى المبادرة بانجاز هذين العملين المهمين وتقديمهما باسم مجمع اللغة العربية تحية لبغداد العظيمة وللمجمع العلمي العراقي صاحب الدعوة الكريمة راجيا أن يحظى إسهامي في دورة مجمعنا الاستثنائية بقبول حسن، والله ولي التوفيق.

الاسم الكامل للمترجم

هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الشافعي الواعظ شهر بالوتري ويلقب بجمال الدين ومجد الدين.

أما شهرته بالوتري فتدل عليها تحليته في معجم المطبوعات التي جاء فيها بعد الاوصاف المذكورة قبلها: «المشهور بالوتري»، ونظن أنها مأخوذة من قصيدته الوترية، وأن شهرته بها اقترنت بشهرة قصيدته ولم نرمن ذكرها من مترجميه وان كنا لا نشك أن صاحب معجم المطبوعات نقلها من مصدر موثوق به.

وأما لقب جمال الدين فهو وارد في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، حسبما نقله عنه

المؤرخ ابن ابراهيم في كتابه الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام. كما ان لقب مجد الدين وارد في كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة. وعلى تعدد هذه الاوصاف والنسب، فإنها لا تفيدنا نسبه الحقيقي إذا أردنا ان نعرفه على طريقة العرب بذكر نجاره او قبيله الذي انحدر منه. فالنسبة إلى بغداد يشترك معه فيها كل من سكن هذه العاصمة التاريخية الكبرى وهو عدد لا يحصى كثرة. والغالب على الظن انه انما نسب اليها بعد مغادرته لها وتجوله في البلاد على المعهود في مثله. وكذلك النسبة إلى الشافعي انما هي تحديد للمذهب الفقهي الذي كان ينتحله، ولئن خصصته من عموم الانتماءات في هذا الصدد، فإنها لم تكسبه تعريفاً شخصيا يكون الصق به من المذهب الذي هو عرضه للتغير. والواعظ ليس الا وصفاً للمهنة التي كان يتعاطاها، كما ان الوتري على مارأينا نما هو لقب ادبي اطلق عليه بعد نظمه لقصيدته الوترية.

وجمال الدين ومجد الدين كلاهما لقب تشريف لا تعريف فيهما خصوصا بعد ان شاعت هذه الالقاب واشتركت بين العدد العديد من الناس فلم يتعرف بها الا القليل منهم على شرط ان يضاف إليها وصف اخر يحصل به تمام التعريف ومع ذلك فانها لا دلالة لها على نسب الشخص اطلاقا.

اصله المغربي

وما يزيد امر اصله ونسبه غموضا قول ابن عبد الملك

في الذيل والتكلمة ويذكر ان اصله من قصر كتامة فهو اذن مغربي الاصل، ومن هذه المدينة المغربية المعروفة بالقصر الكبير في شمال المغرب، فإذها هي التي كان يقال لها قصر كتامة فرقا بينها وبين قصر مصمودة المعروف الان بالقصر الصغير، ويقع في الشمال ايضا على شاطىء البحر الابيض المتوسط ولكن كيف ذلك؟ وهل هذا الاصل بعيد او قريب؟ ومن الذي انتقل من سلفه إلى بغداد؟ وما سبب انتقاله؟ وبماذا كان يعرف في المغرب؟ والى أي عنصر من عناصر سكانه ينتمي؟ اسئلة لا نستطيع ان نجيب عنها بشيء، وربما هو نفسه لم يكن باستطاعته ان يجيب عنها كما تعطيه تلك العبارة الغامضة «ويذكر ان اصله من قصر كتامة».

انما الذي لا شك فيه ان اصله هذا كان له تأثير كبير في نفسه وفي تفكيره وتصوره لهذا المغرب الذي جاء سلفه منه وما زال به ذلك حتى جعله يشد الرحلة اليه ويقيم فيه زمانا يتقلب بين مدنه واقاليمه، ورقعة المغرب اذ ذاك واسعة كبيرة تنتظم جميع ما نسميه اليوم بالمغرب العربي اي هذه الاقطار الاربعة كلها: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، بل تزيد فتضم إليها القطر الاندلسي، ذلك الفردوس المفقود الذي كان يخضع حينئذ لدولة المغرب. ويكون إحدى ولايات الخلافة الموحدية الكبيرة، فقد زاره صاحبنا وجاء في اخباره أنه دخل غرناطة، وان لم نجد له ذكرا عند ابن الخطيب في كتابه الاحاطة، ومن المؤكد أنه زار

مدينته الاصلية قصر كتامة أو القصر الكبير، ومكث فيها مدة يتنقل بين أحيائها ويتعهد معالمها استيناسا بديار سلفه وتذكرا لعهودهم فيها، ونعتقد أنه لما رأى ما عليه المغرب من ازدهار حضاري وتقدم في حلبات العلوم والآداب قرر الاستيطان به نهائيا والرجوع إلى أصله، ولذلك بعد أن عاد فشرق لاداء فريضة الحج انكفاء راجعا إلى المغرب فأدركته المنية وهو بتونس كما يجيء بعد.

مؤهلاته ومواهبه

قال ابن عبد الملك: «روى ببغداد عن أبي اسحق ابراهيم بن سعيد الانصاري أحد أصحاب ابن الجوزي، وبدمشق عن ابي عبد الله بن عبد الوهاب الواعظ، وبالاندلس عن أبي يحيى عبد الرحمن بن عبد المنعم بن الفرس»، ثم ذكر أسماء بعض الذين رووا عنه بمراكش ومصر. وهذا الكلام لا يفيد شيئا في التعرف إلى اوليته ونشأته ومكان أسرته من مجتمع بغداد الذي وجد فيه وتاريخ ولادته وطريقة طلبه للعلم وما إلى ذلك، وهو تغاض ألفناه كثيراً من مؤرخينا وكتاب التراجم عندنا، فلنضرب صفحا عن هذه الفترة من حياة المترجم ولنصحبه وهو كبير قد اكتمل تكوينه بحيث صار يروي الاحاديث عن الاكابر، ويروى الناس عنه، فإن عبارة روي ببغداد ودمشق والاندلس وروى عنه بمراكش ومصر لا تدل الا على ذلك. لانهم يتوخون ذكر أضخم الاسماء وأعظم الشخصيات التي أخذ عنها الرجل ولا يكون

ذلك إلا في حال تمكنه وتمام أهليته. ولذلك فهو يؤخذ عنه في الوقت الذي لا يستنكف أن يأخذ عمن كان من تلك الطبقة إذا لقيه في هذا البلد أو ذاك. وهذا هو السر في أن ابن عبد الملك لم يذكر أخذه عن أحد بمراكش ولا بمصر في حين نصه على أسماء من روي عنهم بالاندلس ودمشق وبغداد، وهي بقية من الشيوخ في مرتبة أساتذة الرجل، تكون هنا وهناك، فهو إذا لقيها يغنم الاخذ عنها، وقد لا يكون ثم من هو في هذه المرتبة فيؤخذ عنه ولا يأخذ هو عن أحد. وهذا هو ما حصل له في مصر ومراكش.

وابن عبد الملك أحد الذين رووا عنه بمراكش لما قدمها صدر سنة خمس وخمسين وستمائة كما ذكر في ترجمته. وقد صحبه ولازمه وحظى بقبوله وذاكره كثيرا وحدثنا عن موهبته في الوعظ والخطابة والكتابة والشعر وطريقته في ذلك حديثا المشاهد الخبير مما قل أن نظفر بمثله في تراجم العلماء والادباء، وناهيك بابن عبد الملك المؤرخ النقاد والاديب الذواق فإنه قد امتاز في هذا الفن من التراجم، بالاجادة والاتقان والنظر والتحقيق واعطاء رأيه وحكمه على أشياء، ولا سيما إذا تعلق الامر بالادب والرواية ومسائل العلم والتاريخ وهذا ما يقوله عن صاحبنا في الموضوع:

«وسمعت منه كثيراً وجالسته طويلا وحاضرته وذاكرته ورزقت منهقبولا كثيراً ولزمت شهود مجالس وعظه، وكانت القلوب تنفعل كثيراً لكلامه، وترق لموعظته وتتأثر لتذكيره.

وكان أغزر الناس دمعاً، اذا رقى لمنبر وعظه لا يتمالك أن يرسل دموعه فيؤثــر عند الحاضرين من الخشوع والخشيـة وسكب الدموع ما لا مزيد عليه. وكان يتولى انشــاء خطبه التي يفتتح بهـا مجالس وعظه، وقصائده المطولـة التي يختتمها بها، وكان سريع الانشاء لذلك كله ».

في هذه الفذلكة من كلام ابن عبد الملك دلالات شتى على جوانب من شخصية المترجم وما كان يتوفر عليه من مؤهلات ومواهب هي التي أكسبته ما حظى به من شهرة وحميد ذكر، لدى كل الاوساط في المغرب، فمن رجال الدولة نرى السيد أبا محمد عبد الواحد بن أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المومن الموحدي يبادر بالاخذ عنه ويمدحه بقصيدة طنانة سنروي منها بعض المقطعات فيما يأتي. ومن رجال العلم يكفي ابن عبد الملك وأخـذه عنه وتنويهه به فضلا عن غيـره من العلمـاء والقضاة والادباء الذين مدحوه وأشادوا بفضائله، ومن الشعب لا نشك أن مواعظه وأمداحه للنبي (ص) كانت تختلب عقول مستمعيه وتؤثر في نفوسهـم وقلوبهم فينفعلون لذلك وتستبيق عبراتهم كما أخبـر بذلك ابن عبد الملك وهو شاهد عيــان، ولا يزال بعض ذلك مشهوداً إلى الان في هذا الاهتبال من المنشدين بأمداحه والتنغم بها في حفلات المولد النبوي الكريم وحلقـات الذكر عند الصوفية، مما حمل المطبعة الفاسية على اخـراج مجموعـة الوتريات في طبعة جميلة مشكولة غير مـا مرة سداً للحاجـة وكفاية للطلب في هذا الباب .

والوعظ عند صاحبنـا فن كما يشهد له وصف ابن عبد

الملك وقوله فيه: «وكان يتولى انشاء خطبه التي يفتتح بها مجالس وعظه وقصائده المطولة التي يختتمها بها» فلنتصور هذا المجلس الوعظي الذي يحتفل له المترجم كل هذا الاحتفال، وقد احتشدت له طبقات الناس على اختلافها، حتى انتظم عقدهم واخذ هو مكانه في صدر المجلس، بدأ ينثر درر خطبة الافتتاح على مسامعهم، وهي لا شك تشتمل على حمد الله عز وجل والثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا والصلاة والسلام على نبيه الاكرم ورسوله الاعظم، ثم يتخلص بعد ذلك للعظة المقصودة فيبدىء فيها ويعيد، ويتأثر ويلين كلامه حين تغلبه الدموع، فيسرى التأثر منه إلى مستمعيه ويتكهرب الجو فلا يبقى في المجلس من لا يستولى عليه الانفعال ويأخذه البكاء تجاوبا مع الشيخ الذي يختم المجلس بقصيدة شعرية من نظمه يرقق فيها الطباع ما شاء ويستميل القلوب حتى لا ينفض المجلس إلا والقوم على أصفى الحالات توبة وندما وازكاها تجليا وطهراً.

ولا يغيب عنا ان نرجع بهذا الفن إلى قواعده التي كانت قد توطدت في بلاد المشرق واصبحت لها مدرسة مشهورة كثر المتخرجون منها حتى صار الوعظ مهنة مرموقة لا يتعاطاها إلا من ظهرت كفاءته وتمرس بأساليبه. ونحن نجد مترجمنا متين الصلة بهذه المدرسة إذ هو كما سبق القول قد اخذ ببغداد عن ابي اسحق الانصاري احد اصحاب ابن الجوزي الذي كان يعد شيخ الوعاظ في وقته بل هو من اكبر وعاظ الاسلام. كما اخذ عن واعظ الشام ابي عبد الله بن عبد الوهاب، فالرجل بتعبيرنا الحديث كان من المختصين في هذه

المهنة وممن درس قواعد هذا الفن على اعلامه المشهورين.

ومكانته في العلم مثل مكانته في الوعظ رسوخا وثباتا، يقول ابن عبد الملك: وكان شافعي المذهب، نظاراً فيه، حسن المأخذ في الاحتجاج له، متوقد الخاطر، ذكيا يقظاً محبا في العلم منصفا في المناظرة والمباحثة: لا يكاد يخلى محاضره من مفاوضة علمية ومذاكرة وبحث ومسألة، على ذلك عرفناه، وكثيراً ما كان يتعرض له في مجالس وعظه بالرقاع متضمنه أسئلة عويصة، فيصدر عنه من سرعة الجواب عنها وحسنه. وإيضاح خفيها وحل مشكلها ما يقضي منه العجب شاهدت منه في ذلك كثيراً وقصدت الاغماض غير مرة أنا وجماعة من أصحابنا في كثير من الاسئلة التي نودعها الرقاع المرفوعة إليه فيأتي (في الجواب عنها بما هو أعجب العجب) للحاضرين سرعة بديهة وحسن ترتيب وحشد (أقوال ثم) يخلص إلي ما كان فيه من وعظه،

وهده غاية لا تدرك في التحصيل واستحضار المسائل واستجماع الذهن وقوة الملكة، خاصة وأن مراكش في ذلك الوقت كانت تعج بأهل العلم ورجال الفقة، فلا يواجه مثل هذه المواقف فيها إلا ما كان من فحولة العلماء وجهابذة الفقهاء

الوتريات

لا نعرف للمترجم أثرا باقيا في الوعظ ولا في العلم، والاثر الوحيد الذي بين أيدينا له هو هذه القصيدة الطويلة

المعروفة بالوترية في مدح خير البرية أو الوتريات في مدح خير البريات على اعتبار أنها عدة قصائد. وهي كذلك. ويذكر في سبب تسميتها بهذا الاسم أنه لما رأى المادحين قد أكثروا من مدحه (ص) بقصائد على حروف المعجم وجعلوها معشرات وعشر ينيات ولم يتعرضوا للوتر، مع أن الله تعالى وتريحب الوتر، عمل هو قصائده هذه على أحد وغشرين بيتاً، في كل حرف قصيدة، وزاد قصيدة على حرف لام الالف ليكون عدد القصائد نفسها وتراً على ما نظن فهي تسع وعشرون قصيدة وان شئت فقل أنشودة، لانها ما زالت تنشد كما قلنا في المناسبات الدينية بالانغام المطربة من فرق المادحين ثم انه التزم افتتاح أبياتها كلها بحروف رويها فقصيدة حرف الالف أوائل ابياتها وأواخرها كلها الف، وقصيدة حرف الباء كذلك وعلى هذا المنوال، إلى النهاية، لا يختلف الحرفان الا في الشكل، فإنه لم يلتزم في الحرف الاول حركة حرف الروى.

هذا في الشكل وأما في المضمون فانها كلها تدور على محور المدح للنبي (ص) والتنوية برسالته العظمي وأخلاقه الكريمة ومعجزاته الباهرة ولا سيما المعراج الشريف فإنه أكثر من ذكره، قال: «لما فيه من العجائب، إلا أني لم أذكر حديث جبريل عليه السلام ووقوفه في الموضع المعلوم وقوله لرسول الله (ص) ها أنت وربك وزجه في النورزجة، ففكرت في نظم ذلك المعنى فيسره الله على في أربعة أبيات وأدخلتها في حرف الميم، فقصيدة

هذا الحرف تزيد عنده على غيرها من القصائد أربعة أبيات، ولكنها لم تخرج عن حد الوتر، وهكذا مزج بين المدح والسير وعبر عن حبه الشديد للرسول (ص) تعبيراً بليغاً وردد ذلك في صور شعرية جميلة وعرض متنوع أخاذ، زاده حسنا وقبولا كونه صادراً عن نية صادقة وإيمان قوي، وانه تنكب الاغراب والتفصح واصطناع الاساليب البيانية التي تعلو على افهام العموم فجاء كلامه واضحاً نافذاً إلى القلوب مهيجا لبلا بل الشوق والحنين إلى جناب الممدوح ومقامه الرفيع ومثيراً للذكريات الحبيبة إلى قلب كل مسلم؛ ذكريات عهد النبوة وتنزل الوحي واتصال الارض بالسماء. فالحقيقة إذا نظرنا إلى مجتوى هذه القصائد نجده متشابها، لا يعدو ما ذكرناه من المدح والتنوية بالمعجزات الخارقة للعادة من غير تبسط في ذلك ولا تتبع لاحداث السيرة النبوية كما فعل البوصيري مثلا في قصيدته البردة والهمزية، ولكن الذي يلفت النظر في هذه القصائد هو التفنن في التعبير عن ذلك المحتوي وإعادة عرضه بصورة غير الصورة المتقدمة مع مزج ذلك بالاعراب عن شدة المحبة والشوق والتعلق بالجناب المحمدي وإظهار عظيم قدره عند الله عز وجل وحث المومنين على التمسك بهديه وأداء حقوقه مما يحرك الوجدان الكامل في الصدور ويترك أبلغ الاثر في النفوس، فطريقة صاحبنا في هذه القصائد خطابية شعرية لها تأثير مزدوج، تأثير الخطابة التي هي صناعته الاولى وتأثير الشعر الذي رأينا أنه لم يحل به

عن سذاجته ومذهبه القديم. وقد نجح بذلك في أداء غرضه نجاحاً كبيراً ونجح أدبيا أيضا لأننا نرى انه من حيث الصناعة الشعرية لم يكن بالضعيف إلا عند الذين تستهويهم وجوه التحسين وتلهيهم فنون البديع عن الابداع الفني المطلوب، وهو لم يكن بجيد ذلك.

وابن عبد الملك المراكشي ممن يشتم من كلامه ورايه في ادب المترجم رائحة الغض منه واستضعافه له إذ يقول: « وكلامه نظما ونثراً مؤثر في نفوس سامعيه، على ما فيه من لين، وسمعته يقول غير ما مرة ان ذوقه لا يساعده على النظم في وزن عروض من اعاريض الشعر ما خلا الطويل. هذا على اتساع حفظ وحضور ذكر لفنون الشعر على اختلاف اوزانه ».

ونحن يكفينا هذا الوصف الذي وصف به كلامه من كونه مؤثراً في النفوس. انه لا يكون كذلك إلا إذا كان ذا قيمة ادبية ممتازة، والادب الذي لا يؤثر في نفوس سامعيه انما هو ادب فج وصنعة كلامية لا روح فيها، فبمقدار تأثير الكلام يعلو قدوه ويثقل وزنه وتتبين اصالة صاحبه. والواقع ان آثارا ادبية كثيرة تخف في ميزان النقد البلاغي الصناعي ولكنها في ميزان التأثير والبلوغ إلى الغرض المقصود تعلو قيمتها ويثقل وزنها وما ذلك إلا لان الاعتبار بالروح لا بالمادة وبالجوهر لا بالعرض.

وهاهنا نكتة فنية لا ينبغي تجاوزها وهي قول المترجم

فيما حكاه عنه ابن عبد الملك أن ذوقه لا يساعده على النظم في أعاريض الشعر ما عدا الطويل، فهذا القول يدل على أن الرجل كان فنانا مطبوعا وأنه كان يقوم على مهمته خير قيام، فيتخير من أعاريض الشعر ما يستوفى أغراضه ويطاوعه على استنفاد رغباته وهو عروض الطويل وبذلك يكون المعنى عنده متحكما في اللفظ والصورة مفرغة على القالب الذي يناسبها فلا تشتكي من تشويه ولا اجهاض.

نماذج

ولا أدل على ذلك وعلى ما قلناه في وصف شعره جملة، من ايراد نماذج من الوتريات، ونتخيرها مما يكثر دورانه على ألسنة المادحين لانهم ما اختاروا منها إلا العيون، فنتعرف منها على عبقرية الشاعر وعلى سلامة ذوق المنشدين في آن واحد.

يقول صاحبنا في وترية الالف:

أصلى صلاة تملأ الارض والسما	على من له أعلى العلا متبوأ
أقيم مقاما لم يقم فيه مرسل	وأمست له حجب الجلالة توطأ
إلى العرش والكرسي أحمد قددنا	ونورهما من نوره يتلألأ
أراه من الآيات أكبر آية	وما زاغ حاشا أن يزيغ المبرأ
أتاه الندآ ياسيد الرسل لا تخف	أنا الله منى بالتحية تبدأ
أردناك أحببناك هذا عطاؤنا	بغير حساب، أنت للحب منشأ

أنلناك في الدنيا على الرسل رفعة	وكم لك من جاه إلى الحشر يخبأ
أعد لك الحوض الذي من يؤمه	ويشرب منه شربة ليس يظمأ
أخلاى من يحصى مديح محمد	وفي مدحه كتب من الله تقرأ
ألا فادع عل الله يجمعنا بـه	فلو لاالدعآ ما كان بالخلق يعبأ

في هذه القطعة من الوترية الاولى مثال لشاعرية المترجم وأسلوبه في النظـم، فهو لا يتكلف ولا يتعثر ولا يدخل في كلامه شيئا من هذه الصناعات البديعية التي اغرم بها اهل عصره، وإنما يرسل نفسه على سجيتها فتارة فصلا وتارة وصلا، وهو يقحم شعره ويعبر عن عاطفته فيما بين الخبـر والوصف، يحاول بذلك التأثير في مستمعه مثل شـأنه في الوعظ، وهو لا يحاول ذلك وإنما هي روحه الفياضة بالمحبة والشوق تطغى على كلامـه فيحصل التأثيـر بالطبع، وعلى كل حـال فهو لا ينسى مهنته الوعظية حتى في الشعـر فيطرز نظمه بالآيات القرآنية الكريمة كما يفعل الواعظ، وذلك مثل قوله «وما زاغ حاشا ان يزيغ المبرأ» فإنه كمـا لا يخفى اقتباس من قوله تعالى في سورة النجم مـا زاغ البصر ومـا طغى وقولـه «فلولا الدعـا مـا كان بالخلـق يعبأ» فإنه كذلك اقتباس من قولـه عز وجـل في سـورة الفرقان «قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكـم» ولا يفوتنـا أن ننبه على أن قولـه في الشطر السابـق: حاشا أن يزيغ المبرأ هو من التذييل البليغ الـذي يدل على قوة عارضته، فإنه كمل به البيت وأحكم بـه القافية وبين بـه فحوى

الآية وأرسله مثلا، وذلك من بلاغـة الطبع التي لا تـدرك بصنعة ولا بتكلف. ثم إن التزام افتتاح الابيات بحرف الروى وهو الصنعة الوحيدة الملتزمـة في كل القصيدة، يكاد لا يدركه من لم ينبه إليه، وذلك لعدم التكلف فيه فهو منسجم تمام الانسجام مع معانـي الابيات والالفاظ المتخيرة لذلك، لانه في أصله التزام خفيف الحمل يسير المؤونة ثم ان الناظم لسعة ذرعه وغزارة مادته لم يلجأ قط إلى تلمس اللفظ النابي والبحث عن الكلمة النافرة قصد تحقيق هذا الالتزام فلذلك جاء طبيعيا لا شائبة كلفة فيه.

وقد يلاحظ ما في كلامه من المبالغة، وهو تابع في ذلك لما يرويه غير واحد من العلماء ولا سيما المتأخـرون من أخبار ضعيفة السند في السيـرة والمعجـزات على ان المبالغة في المدح سنة الشعراء من قديم، ومن كان يقبل ما قالـه النابغة في النعمان وابو نـواس في الـرشيد مثـلا لا يستنكر هذا الذي يقوله صاحبنا في الرسـول الاكـرم صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه ابيات ومقطعات من حروف شتى :

بأحمد كل الارض نارت واشرقت	ففي نوره كل يجيء ويذهب
براه جلال الحق للخلق رحمة	فكل الورى في بره متقلب
بدا مجده من قبل نشأة آدم	واسماؤه من قبل في العرش تكتب

جزى الله عنا احمداً خير ما جزى	فمذ جاءنا بالحق والحق أبلج
جلا بالهدى عنا الضلالة مذ أتى	فلولاه كنا في الضلالة نمرج

جناب عظيم الجاه مرتفع الملا ... له الحلم شأن والسماحة منهج
جواد إذا أعطاك أغناك جوده ... بحار الندى في كفه تتموج
جدير بنا نسعى وندلج نحوه ... فذاك الذي يسعى اليه ويدلج
جعلنا اليه في الحياة احتياجنا ... ونحن اليه في القيامة أحوج
جميع الورى والرسل تحت لوائه ... ومن ذاله عن جاه أحمد مخرج
جهرت بمدحي فيه لا متلجلجا ... ومن مدح المحبوب لا يتلجلج

دوائي إذاما الداء حل بمهجتي ... مديح رسول بالشفاعة يفرد
دهشنا به حباً فما ولد النسا ... كأحمد مولوداً ولا هو يولد
درى القلب من يهوى فطاب له الهوى ... ومن كان يهوى سيد الرسل يسعد
دماء مزجناها بحب محمد ... وأكبادنا من شوقه تتوقد

لمن بالعلا فوق السماء حلول ... يناجي بليل والانام غفول
لسيد سادات النبيئين أحمد ... له كان من نور الحجاب نزول
لتوراة موسى فاسألوا عن محمد ... تقل لكم ما للحبيب عديل
لكل رسول منزل ومكانة ... ولكن ما مثل الحبيب رسول
لحضرة قدس الله أحمد قد دنا ... وناداه فيها بالهناء جليل
لمسراه أبواب السماوات فتحت ... ومولى تجلى والحديث يطول

مجيد الى عرش المجيد قد ارتقى ... وقيل رءاه انه لعظيم
محمد للكرسي أسرى بجسمه ... وفي الحجب أمست الرسول رسوم
مسايره جبريل حتى اذا انتهى ... الى بحر نور ليس فيه يعوم
ملا قلبه رعبا ونادى محمداً ... تقدم ودعنى قد دعاك كريم
مقامى معلوم وها أنت أحمد ... وربك تبدو من لدنه علوم

مشى وحده والحجب ترفع دونه — وأملاكها تسعى لـه وتقـوم
ممشى على الافلاك يسعى لحضرة — بها الله ساق والشراب قديم

قفوا واسمعوا انطقي بمدح محمد — رسول صدوق عن هوى ليس ينطق
قديما بدا بين النبيئين فضله — فان قدموا بعثا ففي الفضل يسبق
قضى الله أن لا يلحق الرسل لاحق — ولا أحـد منهـم بأحمـد يلحـق
قرأنـا أحاديثاً صحاجـاً بأنـه — عليه لواء الحمد في الحشر يخفق

لـآدم تاج من بنـوة أحمد — يباهي به الاملاك في الملأ الاعلى
لانجيل عيسى في ثناه تتابع — وكان بما يثنى عليه بـه أهلا
لـآ ياته من قبل نشأة خلقه — وجود وبرهان وأخباره تتلى
لاصحابـه فضل علينا لانهـم — رأوا وجهه ما بين أظهرهم يجلى
لاكرامه أدناه للعرش ربـه — ونادى به أهلا بمحبوبنا أهلا

إن هذه المنتخبات لا تختلف في شيء عن القطعة التي انتخبناها من الوترية الاولى، وما قلناه في تلك هو ما يقال في هذه، المحتوى هو الفضائل والمعجزات التي اختص بها الرسول الكريم، تـردد وتعـاد في كـل مـرة بصورة أو بعبارة غيرما سبق. وطريقة الاداء طبيعية ساذجة تعتمد الوضوح والنفوذ إلى القلوب قصد التأثير أكثر مما تعتمـد أي تعمل أو ارتكاب أسلوب من أساليب البلغـاء المتصنعين، وتناول المعاني لا يلتزم فيـه ترتيب ولا تناسب، وإنمـا هو كيفما تأتي وعلى حسب ما تسمح به الطاقة الحائرة أمام مظاهـر الكمال التي لا تعد ولا تحصى، ولذلك فإن الشعور الذاتي

بالتقديس والحب والتعمق بهذا النموذج الانساني الاعلى هو مما يمتزج بطريقة الاداء هذه ويضفى عليها حلة من الروعة والجمال، ولا سيما عند المعتقدين المومنين.

وقد كان لهذه الميزات أثرها في تقويم الوتريات وما تحظى به من استحسان وقبول لا في أوساط المادحين والمتصوفة فحسب بل في أوساط الادباء أيضا يدل على ذلك ما تنوولت به من معارضات وتخميسات وشروح.

فممن عارضها الاديب المغربي محمد الفاطمي الصقلي المتوفى سنة 1311هـ وإن كان في خطبة معارضته تبرأ من أن يكون هذا هو قصده، وذلك حين يقول: (ولا أزعم أنى معارض، وانما جئت مثله مستمطراً من سماء الرسول أغزر عارض وإلا فمن أين يدرك شأو الضليع ضالع، ولو بلغ الغاية في تحسين المطالع، وتزيين المخالص والمقاطع)، والحقيقة أن معارضته هذه بلغت من الجودة وحسن الصناعة ما تعبر عنه كلماته هذه.

وممن خمسها ضياء الدين الاذرعي المتوفى سنة 731 ومحمد بن الوراق قال في كشف الظنون وكان شروعه فيه أولا باشارة منه يعني من صاحب الوتريمات. وخمسها أيضا محمد الفاطمي الصقلي المذكور آنفا ومحمد النظيفي. وكلا تخمسيهما مطبوع.

وممن شرحها الشيخ عبد الغني بن عبد الجليل الحنفى من أهل القرن التاسع ومحمد النظيفي وشرحه مطبوع مع تخميسه.

أما هي فقد طبعت مرارا بفاس كما ألمعنا إلى ذلك من قبل وطبعت بالمشرق أيضا.

بقية أخبار المترجم

يشير ابن عبد الملك في الذيل والتكملة إلى ورود الخبر بكائنة التتر واكتساحهم لبغداد سنة 656هـ وأثر ذلك في نفس صاحبنا وحزنه الشديد لما خصه هو وعمه وغيره من تلك الكارثة حتى انه كان يذكرها في مجلس وعظه ويظهر تفجعه لمصابه بها ولا يجد صبراً على ذلك.

ثم انه يقول بعد: واقام بمراكش مدة ثم رحل إلى الاندلس ودخل غرناطة وغيرها من بلاد الاندلس ووعظ بها. ثم كر راجعا إلى مراكش فبقي فيها مدة، ثم فصل عنها مشرقا فحج حجة الفريضة وقفل إلى المغرب مؤملا الوفادة على مراكش فتوفي بتونس عقب صلاة الجمعة لليلة بقيت من محرم ثلاث وستين وستمائة.

وهذا الكلام يفيد أنه قضى في زيارة المغرب نحو ثمان سنوات، إذ تقدم لنا عن ابن عبد الملك أن قدومه لمراكش كان صدر خمس وخمسين. وكونه شد الرحلة إلى المغرب قبل أن يحج يعطى انه جاء مسوقا بالحنين الى موطن اجداده، ثم طاب له المقام فقرر الاستقرار نهائيا بالمغرب، ولكنه لما كان دائم اللهج بالديار المقدسة والتشوق إلى زيارة قبر الرسول (ص) توجه الى اداء هذا الواجب الديني، فلما قضاه

ادركته الوفاة بتونس وهو في طريقه الى مراكش التي اعجبته وكان يؤمل ان يقضى بقية حياته فيها.

ثم ان تاريخ وفاته عند ابن عبد الملك يخالف تاريخها عند حاجي خليفة، فإنه جعلها سنة 662. ولكن بما ان ابن عبد الملك معاصر ومخالط للمترجم وتاريخه هذا مضبوط باليوم والشهر بل والساعة وفيه مع ذلك تعيين مكان الوفاة فانا نميل الى ترجيحه ونختاره على ما في كشف الظنون.

ما قيل في مدحه

أشرنا فيما سبق الى ما لقيه المترجم في المغرب من حفاوة واكرام نتيجة اعجاب القوم به حتى انه مدح شعرا من غير واحد من الادباء، وفي طليعتهم أحد أمراء الموحدين وهو السيد أبو محمد عبد الواحد بن أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المومن فقد قال فيه قصيدة طويلة نقتطف منها هذه الابيات في صفة وعظه:

بحر ولكنه عذب جواهره	اصدافها شققتها منه اذهان
يبدي الجلى من المخفى منطقه	كأن ألفاظه للسحر خزان
معنى رقيق ولفظ زانه زجل	جزل يسدده للعقل برهان
تجمعت فيه أشياء محاسنها	تفوق عدا إذا ما عد ديوان
اذا بدا صاعدا أدراج منبره	غارت عليه من الابصار آذان
وان تكلم غار الطرف من حسد	فاعجب فبينهما في ذاك شنآن
طوراً يعلمنا طوراً يخوفنا	طوراً يرجي فهذا الوعظ ألوان

يا واعظاً بهرت حسناً مواعظه | عليك لازال للرحمان إحسان
كم من شرود أخي غي الى رشد | قادته يا إبن رشيد منك أرسان

وممن مدحه الاديب الكاتب البارع أبو موسى هارون بن عبدالله السماتي الاشبيلي نزيل مراكش فقال في قصيدة طويلة أيضاً:

أواعظنا جلت لدينا بك النعمى | فنلنا الذي كنا نهيم به قدما
وأهدت لنا بغداد منك غريبة | فلله ما أبهى سناها وما أسمى
حديقة فضل أينعت زهراتها | فقد حسنت مرأى وفاحت لناشما
فلا انتقلت عنا ظلال نعيمها | ففي كل حين تثمر العلم والفهما

السلم المحروس

حضرت معركة من أغرب المعارك التي يمكن أن تتصور في أي مكان أو زمان، معركة كان من الممكن أن تجري بين طرفين عدويين عداوة أصيلة ولكن حال بينهما ماجعلها تنشب ويحمى وطيسها فقط بين أحد الطرفين، وهذا الذي حال بينه وبين الطرف الآخر. أنها أشبه شيء بالمعارك الحربية التي يجند لها جند من المرتزقة فيكون قتالهم لا عن عقيدة ولا عن حفاظ، وبذلك فإنها أكثر ما تنكشف عن انهزام الفريق الذي يقاتل بهذا الجند وإن لم تكبده كثيراً من الخسائر في نفوس أبنائه.

قلنا لمحدثنا هذه معركة جرت في إحدى المستعمرات بفرقة من هذا الجند الذي يسمونه باللفيف الاجنبي، أو هي إحدى معارك الحرب العظمى التي كان الحلفاء فيها يقاتلون بجنود مستنفرة من مستعمراتهم.

واستدرك أحدنا موجهاً الخطاب إلى صاحبنا المتحدث فقال: ولكن متى كنت أنت جندياً في جيش وطني أو أجنبي؟ أو على الاصح متى كنت محارباً تحضر المعارك وتباشر القتال وأنت من أجبن خلق نعرفه؟

فضحك صاحبنا وقال: وإن أغرب ما في هذه المعركة أن الطرفين المتعاديين فيها كانا حيوانين والطرف الثالث إنسان.

فقال صاحبه الذي يعرفه: لعله كان هو ذلك الانسان. ولعله مثل في المعركة دوربشر بن عوانة فقتل الاسد والافعى...

وضحكنا جميعاً واستطرد صاحبنا يقول: أنا كنت في ذلك الحين ما أزال طفلا في المدرسة. وأما الحيوانان فإنما هما سنور وجرذ.

وعجبنا من كلامه وسألناه كيف كانت القصة؟

فقال: عدت من المدرسة مساء إلى البيت، فوجدت والدتي والخادمة وإخوتي الصغار منحشرين جميعاً في مخزن الزاد والمؤونة وقد أغلقوه عليهم وارتفعت أصواتهم وتعالت صيحاتهم بحيث لم أفهم ما يقولون، فطرقت عليهم باب المخزن وصرخت أعلمهم بوجودي فاستمهلوني وقالوا انتظر قليلا فإننا لا نستطيع فتح الباب. وتريثت ثم تريثت فلم يفتح الباب وزاد الضجيج وسمعت صوت السنور الذي لم الحظ عدم وجوده في البيت أولا . . وكان يموء مواء مسعوراً وينفخ بكل جهده وكأنه في صراع مع ضار متوحش. وحينئذ عمدت إلى سلم خشبي صغير كان عندنا فنصبته على باب المخزن وتطلعت من فتحات فوق الباب فرأيت والدتي بيدها عصى وهي تضرب بها هنا وهناك، ولم أميز ماذا كان يفعل الاخرون لان الفتحات كانت مكسوة بالزجاج فهي تمنع من رؤية كل ما في المخزن. وخيل إلي من شدة اللغط والصراخ ان والدتي تهدد اخوتي وربما حاولت

أن تضربهم فنزلت من السلم وصممت على الدخـول معهم إلى المخزن فجعلت اخبط على الباب بكل قوتي وأصرخ افتحوالي افتحوالي.

ولم يسعهم مع إلحاحي المتزايد إلا أن يشققوا البـاب تشقيقاً حذراً ويقولوا هيا ادخل بسرعة فاندسست إلى داخل المخزن وانا لا أصدق انى صرت معهم.

ورأيت المخزن قد انقلب رأساً على عقب، فالاوعية في غير اماكنها، والاشيـاء مركومـة في الوسط، والسنور قـد اعتلى أحد الاوعية في حالة تحفز، والصغار مرتكبون وهم يلوذون بوالدتي وبالخادمة. ولما رأوا اندهاشي من الحالة قالوا الجرذ. الجرذ. قلت: وأين هو؟ أجابوا انه مختبيء بين الاوعية. وشـرعت الخادم تنقل الاوعية من المكان الذي كانت فيه إلى مكان آخـر وأنا أعينهـا وأخوتي يطوفون بنـا ويقفزون ووالدتي مترصدة بالعصى، ولكننا كدنا نحول جميع الاوعية ولـم نر الجرذ فقالوا انه تحت الوعاء الذي يعتليه السنور وهوت أمي بالعصى على السنـور فوثـب حتى كاد يمس السقف وهو يصرخ في حالة جنون ثم حط على وعاء آخر من الاوعية التي حولناها. ولم نجد الجرذ تحت ذلك الوعاء، فقالوا انـه اندس بين الاشياء المركومة وسط المخزن.

وجعلنـا نرفع تلك الاشيـاء بغاية الحيطة فلـم نشعر إلا والجرذ ينفلت من بين أرجلنا ويختبىء بين الاوعية مـرة ثانية، وتهوى أمي بضربة أخرى على السنور معيرة أياه بالجبن وعدم القيام بواجبه كسنور أصيل. فطار المسكين من فوق

الوعاء وانكمش في ركن من أركان المخزن وهو يموء ويحتج، فجاءت الخادمة إليه تستنفره وتحرضه على الجرذ وهو لا يعى ما يراد منه، ولم يلبث أن جرى إلى حيث توجد الاوعية وأخفى رأسه بينها، فأخذت أمي، تنخزه بالعصى وتستعديه على الجرذ الكامن، وهو ينفخ ويموء ويتلوى ويجري من ركن إلى ركن، وقدا نتفش شعره وبدا في شكل مخيف والخادمة تعترض سبيله وتحول بينه وبين الصغار، وقد انذهلنا جميعاً من عناد هذا السنور وتمرده وامتناعه من الهجوم على الجرذ الذي أمكنته الفرصة منه غير ما مرة وكان قاب قوسين أو أدنى من براثنه التي هي افتك سلاح بالجرذان، حتى ظننا أن بينهما حلفا أو تعهداً بعدم التعدى دفنت معه كل الخصومات والعداوات التي كانت بين هذين الصنفين من الحيوان.

وكأن الجرذ الذي كان يرقب من مخبأه هذه الغارة المشنونة على السنور فهم أننا نقوم بحملة تأديبية على السنانير لاعتداءاتهم الظالمة على الجرذان، فأمن على نفسه واطمأن من وجود أنصار السلام معه في المخزن، فخرج يتهادى غير خائف ولا وجل ولم يكن بأخف من والدتي التي نزلت عليه بالعصى فضربته ضربة قاضية ثم والت عليه الضربات وهو يحاول أن يزوغ فلم يفلت منها حتى قضى نحبه.

وظهرت على الوجوه علامة الظفر وهدأت الحركة في حين تحلق الصغار حول جثة الجرذ يتأملونه ويعجبون من شدة بأسه على صغره وضآلته.

ثم ان أمي جعلت تدفع به نحو السنور الذي كان في حالـة ذهول وتشير عليه بافتراسه ومهاجمته، وهو ينفر منه ويأبى عليها وكلما هددته بالعصى نفخ وصاح واستعد للثورة من جديد، فماكان منها إلا أن فتحت باب المخزن وضربت السنور ضربة شديدة فانفلت هاربـاً من البيت كما يهرب السجين من السجن.

ولم يعد إلينا الا بعد غياب عدة أيام. ولما تأنس ورجع إلى حالته المعهودة كان إذا رأى جرذاً أو فأراً يغض بصره عنه أو يوليه الادبار ولا يمد إليه يداً بسوء ولو لعب بين سمعه وبصره. وكان قبل ذلك من أشد السنانير جرأة وفتكا بجرذ اوفأر.

وقد عجبنا حقاً من قصة صاحبنا وقلنا له: لقد قمتم في بيتكم بتجربة ناجحة لما يدعو اليه أقطاب السياسة في العالم لهذا العهد من السلم المحروس.

النقيب ابن زيدان وكتابه

الرحلة المحمدية الى سجلماسة

العلامة النقيب مولاي عبد الـرحمن بن زيدان شخصية لامعة، متميزة بين العلماء والمؤلفين المغاربة، بل هو فرد من الافراد القلائل الذين تفاخر بهم البلدان العربية على العموم، لمزيد اجتهادهم ونشاطهم وانتاجهم العلمي المنقطع النظير. فهو كالعلامة أحمد تيمور بمصر، والشيخ عبد القادر المغربي بالشام. وتلك الطبقة، جمع فأوعى، وابصر فما أقصر.

له مكتبة حافلة بالمخطوطات النـادرة والكتب القيمة، صرف في تكوينهـا وجمعها أنفاسه ونفائسه حتى أصبحت اليوم من المكـتبات المعدودة في العالم العربي ومن أشهر المكتبات في المغرب. وله عكوف على هذه المكتبة بحيث يستفيد منها أعظم استفادة ممكنة لصاحب مكتبة رأيناه وعلمناه فهى ليست مكتبة يتجمل بها أو يباهى بمحتوياتها، وانما هي مكتبة للبحث والدرس فالتحصيل والانتاج. وبذلك كان من اكبر المؤلفين، المغاربة المعاصرين، واكثرهم جمعاً وتحقيقاً.

وقد اختص، او كاد، بالكتابة في التاريخ، وتاريخ الدولة العلوية بالخصوص. فأفاد وأجاد، واتى بما لا يستطيع غيره أن يأتي بمثله ولو استعد له غاية الاستعداد. اعانه على ذلك شيآن : صبره وجلده وطول باعه في البحث والاستقراء والتمحيص، وما تجمع لديه من الوثائق التاريخية والمستندات الرسمية، كالظهائر والمراسيم والرسائل وما إليها، حتى يكاد يأتي لكل قضية بحجة، ولكل دعوى ببينة وهذا شيء قل ان يتأتى لاحد، الا لمن كان من صميم البيت الذي يؤرخ له، وحارساً أمينا لمخلفات رجاله العظام وآثارهم ومآثرهم.

ونحن إذا أردنا تحليل هذه الشخصية الفذة، لنستعين بذلك على تقدير مقامها العلمي، لابد ان نذكر انه من سلالة اولائك الملوك الامجاد، ويجرى في عروقه الدم الذي حركهم لتخليد تلك المآثر وبناء تلك الاثار فضلا عن كونه من الباحثين الحصفاء والمؤلفين الموفقين، فهو بموجب الوصف الاول يغار الى حد التحمس لكل قول أو فعل يصدر عن احد الملوك العلويين ويتتبع الشاذة والفاذة من حركاتهم وسكناتهم التي ربما نمر بها نحن مر الكرام، لا نلتفت اليها إطلاقاً فيسجلها هو بمزيد الاهتمام، ويسندها بما يجيب من الدلائل، ويعلق عليها بما تستحق من النظر، وينبه على امثالها في تواريخ الدول المختلفة، فلولا هذه العلاقة الاسرية : وتحمسه لمفاخر الدولة العلوية، لضاع كثير من تاريخ هذه الدولة، كما ضاع غيره من تواريخ دول المغرب السابقة، مع أننا نعيش في ظلها ونمشي تحت لوائها، وما ينقصنا لان نتتبع صغار مآتيها

الجليلة ومساعيها النبيلة، كما نتتبع كبارها، إلا ذلك الحماس الاسرى والآصرة المكينة بداخل البيت وما فيه .

وهو بموجب الوصف الثاني يعمل عمل العلماء المحققين الذين يجتهدون في استخلاص النتائج الصحيحة من أبحاثهم ولا يرضون الا أن يكون عملهمكاملا أو قريباً من الكمال، وفي جميع تحريراته يعنى بتجويد العبارت، وتبويب الموضوعات ولئن كان يرتكب السجع غالباً في إنشائه، فهو سجع غير معقد كالسجع الذي يتضمن كثيراً من الاشارات التاريخية والتلميحات البلاغية، ذات المعاني الخفية، بل هو سجع قريب من الفواصل والفقر المتوازنة التي كان بلغاء الكتاب من أهل القرن الثالث يستعملونها.

وعلى كل فمرادنا أن نقول، للحقيقة والانصاف، أن ليس تحمس النقيب الزيداني للعرش العلوي وحده، هو السبب في إحاطته وشموله وتقصيه، بالنسبة لما يكتبه عن تاريخ الدولة الشريفة، وإنما ذلك راجع أيضاً، الى صبره ودأبه وروحه العلمية الصميمة.

بقيت ظاهرة أخرى في كتابة النقيب إبن زيدان، لا يجمل بنا أن نغفلها، وهي مما له اعتبار كبير في مناهج البحث العلمي الصحيح، وأعنى بها ترفعه عن السفاسف والاغراض الشخصية والادعاء، فإن هذه الروح العالمية، تختفي من كتابات غير واحد من المؤرخين المعاصرين الذين دأبهم الغمز واللمز بغيرهم وبناء الامجاد التي لا حقيقة لها لانفسهم وذويهم،

ناسين أو متناسين أن هناك مؤرخين منصفين يضعون الامور في نصابها، وقواعد للنقد تحمي ميزان التاريخ أن يميل مع الهوى، فمن جعل من أبيه عالماً تفقدنا تلاميذه والمتخرجين به فلم نجد احدا، ومن صنع من قريبه شخصية وطنية قرأنا كتب المستعمرين وتقاريرهم فوجدناه احد عملائهم.. وهكذا في كل أمر،أمر، وقد تحاشى المؤرخ ابن زيدان عن هذه الخلة الشنيعة فتحامته الشبه وبقى في المكان المرموق من الجميع.

وهذا تاريخه الكبير لمدينة مكناس بل هذه رحلته التي نكتب عليها هذه الكلمة، وهي العمل الذي سجل فيه رحلة سيد البلاد السلطان المعظم سيدي محمد بن يوسف نصره الله الى سجلماسة، شاهدة بما ذكرناه، وما المعنا اليه في تحليل شخصيته العلمية. فماذا اذكر من ادبها الجم، وإنشائها العالي، وفوائدها التاريخية، لا سيما تاريخ القطر السجلماسي، الذي لم يشتمل عليه ديوان، وتتبع رحلة مولانا السلطان في أنحاء ذلك القطر وغيره من الاصقاع المغربية، وما يتعلق بكل صقع منها من لمحات تاريخية، وتراجم علمائه وأدبائه وقواده، مما لا يوجد في غيرها!...

ولا أقول هذا مدحا وتقريضا، وإنما هو تقدير وتعريف بقيمة هذا الكتاب الممتع، ولو أني صادفت فيه ما ينقد لقلته بكل صراحة فالحق اولى ان يقال. نعم أشير الى الشيء الوحيد الذي استنكرته في هذه الرحلة، وهو احتواؤها على بعض الاسماء التي كنت اود تجاهلها وعدم ذكرها بالمرة،

ولو اقتضى الحال، لبغض الناس لها وقلة احتمالهم اياها، ولعل طبيعة المؤلف وحرصه على تحرى الواقع وتصحيح التاريخ لم يسمحا له بذلك، فلم يسعني الا ان أتصامم عن الصوت العاطفي الذي همس بذلك في أذني، وانصت لصوت الواقع المجلجل ان هذا هو التاريخ!...



قـادة الفتـح الاسلامـي

للواء الركن محمود شيت خطاب

فتـح جديد في كتابة التاريخ الاسلامي

أنـا أعتقد أن التاريخ الاسلامي لم يكتب بعد، لا أعني الحوادث والاخبار، فهذه قد يكون عندنا منها ما ليس عند أمة من الامم، وانما أعني الاستفادة من هذه الحوادث والاخبار، بعد تنظيمها وترتيبها والدراسة الوافية لها، لاستخراج العبرة منها، وابراز مواقف البطولة ونواحي العظمة فيها، كما يفعل غيرنا من الامم الراقية التي تجعل من تاريخها انجيلا مقدسا لا تفتأ تستظهر به وتردده في المحافل والمقامات.

ومع أن المادة الخام لا تعوزنا بل أنها تكاد تفيض عن حاجتنا فإننا لم نصنع من هذا التاريخ الضخم شيئا يجعلنا نفخر بماضينا ونطور حاضرنا ونومن بمستقبلنا.

أراد ابن خلدون أن يكتب تاريخا علميا محررا فوضع منهاجا للتاريخ وقواعد لعلم الاجتماع، ولكنه لم يكتب التاريخ المطلوب وانما سلك سبيل من قبلـه في جمـع المعلومات وتسجيل الروايات على تعددها واختلافها.

وكتب الدارسون المحدثون تواريخ لفترات معينة من تاريخنا ولبعض الدول الاسلامية، ولان اعتمادهم كان على كتب المستشرقين، وهي في الغالب لا تخلو من تشويه ودس، فقد جاءت هذه التواريخ مليئة بالشك والريب. وهي بأن تزهدنا في تاريخنا أحرى من أن ترغبنا فيه.

طائفة قليلة من الرواد في فجر نهضة الشرق الاسلامي، كالمرحومين رفيق العظم ومحمد الخضري، كتبت تواريخ فيها ايمان وفيها اعتزاز، وكان لها اثر فعال في رفع معنويات المسلمين وإيقاظ هممهم لاسترجاع مجدهم الضائع، ولكن أحدا لم ينسج على منوال هذه الطائفة، وخاصة بعد انتشار الوعي وتقدم وسائل البحث، فبقيت أعمالها على قلتها مغمورة بين عشرات الدراسات والكتب التي لا تبل ظمأ ولا تغنى من جوع.

في التاريخ السياسي والحضاري فضلا عن التاريخ العلمي، وفي كتابة التراجم والسير، لم نفعل شيئا لحد الان، وكل ما أنجزناه في هذا الباب أو ذاك هو مما يتسم بروح المحافظة على ما أبقاه لنا الاولون من تردد بين الروايات يكاد يفضي إلى عكس المقصود أحيانا، أو مما يحمل طابع البضاعة المستوردة من الخارج بما يوحيه من أفكار أقل ما تبعث عليه البلبلة وسوء الظن.

ولنذكر على سبيل المثال من التاريخ السياسي واقعة بلاط الشهداء التي جرت في سهل بواتيه بفرنسا بين عبد

الرحمن الغافقي وشارل مارتيل، تلك الواقعة التي يعتبرها المؤرخون الغربيون من الوقائع الحاسمة بين النصرانية والاسلام فيقولون انها التي أوقفت تقدم المسلمين في اوربا وان شارل مارتيل بانتصاره فيها يعد هو منقذ المسيحية في الغرب من اكتساح العرب ودينهم الجديد لها. وإذا كان للمؤرخين الغربيين أن يقولوا ما شاءوا بدافع الزهو والاختيال والاكبار من شأن هذا النصر الذي اكتسبوه في واقعة حربية عادية، فالعجب من مؤرخينا الذين يشايعونهم على رأيهم ويؤكدون النتيجة التي بنوها على هذه الواقعة ويعاونون في وضع إكليل الفخار على رأس شارل مارتيل من حيث يزرون بقومهم ويتنكرون لتاريخهم ويطيحون بمجدهم التليد.

ان شارل مارتيل لم يوقف تقدم المسلمين في اوربا ولكن المسلمين توقفوا لعوامل وأسباب من حروب وفتن داخلية، فالخلاف بين الولاة في الاندلس وتزعزع كرسي الخلافة الاموية في المشرق وقيام الدعوة العباسية وانقطاع المدد الحربي عن هذه الواجهة الغربية موقتا ثم قيام الدعوة المروانية في الاندلس واقتطاع هذا الجزء من خلافة الشرق الذي قطع بسببه المدد الحربي نهائيا عن الواجهة، كل ذلك يجب أن يحسب له حسابه في توقف حركة الفتح الاسلامي في فرنسا وغرب أوربا، وليس لشارل مارتيل في ذلك من يد إلا موافقة الظروف المواتية ومواقعة خصومه في جولة حربية كان من الممكن أن تجدد على يد قائد آخر غير عبد الرحمن وتكسب، ويكون

لها مـا بعدها لولا انتكاسة الدولـة الاسلامية والتطاحـن الذي نشب بين رجالها على السلـطـة.

وعلى هذا فقد نجح الفرنسيون مرتين، احداهمـا، لمـا اختلفنا ولم نعاود الكرة عليهم بعدما خسرنا واقعة بـلاط الشهداء، والثانية لما بنوا من الحبة قبة واضفـوا على هذه الواقعة صفة الواقعـة الحاسمة واقتنعنا نحن بحكمهم وكتبنا تاريخنا على أساس من وحيهم واملائهم.

لقد أصبحت أسطورة شارل مارتيل بحيث لا يمحوها من خيال المسلمين أنفسهم الا كتاب خاص بواقعة بلاط الشهداء وظروفها ومـا أعقبهـا.

وفي تاريخنا الحضاري لم يكتب احد إلى الان، ما يبز كتاب جوستاف لوبون وكنا أحرياء ولو بعد ان خط لنـا هذا العالم الفرنسي المنصف طريق العمل، أن نؤرخ لحضارتنا بروح علمية مؤمنة، ونبرز معالمها ونحيي مئاثرها حتى نغرق كتاب لوبـون وما شابهـه في خضم المعطيـات والايادي البيضاء التي أسدتـهـا حضـارتنـا الاسلامية للانسانية جمعـاء، سواء في مشرق او مغرب، وسواء في الناحية العلمية والفنية أو الناحيـة الاجتماعية كبسط العدل والمساواة وضمـان التعايش السلمي بين مختلف العناصر ورفع راية الحرية الفكرية والدينية بما لم تعرفه أوربا حتى يومنا هذا، لا سيمـا ونحن بناة هذه الحضارة وصانعوها وعندنا نبأها وخبأهـا فإذا كتبنا عنهـا كتبنا عن علم وخبرة ليس عند الاجنبي منهما إلا

القليل، ولكن أنى لنا بالبصيرة النافذة والفكر النير الذي يرتفع بنا عن حضيض الامعية العلمية على الاقل فيما نحن أعلم به وأدرى.

وفي هذه الايام وبعد أكثر من نصف قرن على ظهور كتاب لوبون، طلعت علينا كاتبة المانية بكتاب جديد في الموضوع يشيد بفضل العرب وحضارة الاسلام على العالم اشادة يقصر عنها الوصف، حتى أنها سمت كتابها هذا (شمس الله تشرق على الغرب) وهذه الكاتبة هي الدكتورة سيجريد هونكه والعجيب أنها لم تبن هذا الكتاب من مادة واسعة، وإنما بنته من اشياء حقيرة في رأي العين ولكنها بنظرها الحصيف قررت أهميتها في الحياة الانسانية وتطور الحضارة ومن ثم نوهت بفضل مبتكريها وأياديهم على تقدم العلم والمعرفة.

لو أن احدا من كتابنا تناول تلك الاشياء لما أعطاها أهمية مطلقاً، ولو انه تكلم على اولائك الاشخاص الذين تكلمت عليهم هذه السيدة الفاضلة لذهب اكثر كلامه في هل أنهم عرب او اتراك او فرس، ولشك في الكثير من اعمالهم في حين أنها تجرد الكثيرين من علماء اوروبا وفلاسفتها مما نسب اليهم من نظريات وترد الحق فيها لاربابها من علماء الاسلام وفلاسفته.

ان بلوى التجرد ومنهجية البحث والروح العلمية المزعومة قضت على ايماننا بأنفسنا، فكيف يمكننا ان نثبت وجودنا ونحن خارجون عن هذا الوجود ؟.

وأما التراجم والسير فباستثناء عبقريات العقاد قلما نعثر على كاتب ترجم لاحد عظمائنا وهو مومن به متعاطف معه، حتى أن أحد كتاب السيرة النبوية ممن اعتمد على بعض الاجانب ليتحفظ في مسائل من الوحي والمعجزات ما لا يتحفظ معتمده الاجنبي.

والعقاد نفسه. وهو قمة في هذا الباب، لم ينطلق من العقال الا بعد أن كتب العبقرية الاولى ومع ذلك فهو في عبقرية الامام علي قد وقع فيما يقع فيه كل كاتب لسيرة هذا الامام من تركيز العمل على سني خلافته الاربع الحافلة بالمآسى والمشاكل، فيخرج الكتاب وثلثاه لهذه الحقبة القصيرة من حياة علي، والثلث فقط لعمره الطويل في الجهاد والتضحية ونصرة الاسلام والنبي عليه السلام بالقول والعمل والسيف واللسان، أي أنه سلك سبيل الاولين برغم تجديده وألمعيته. في هذه العبقرية بالخصوص، فبقيت ترجمة علي كرم الله وجهه وسيرته بحاجة إلى من يعرضها عرضا لا يخدشه هذا التركيز على خاتمة حياته وما اكتنفه فيها من صعاب حتى لا يكون ذلك هو الاثر الباقي في ذهن القارىء عند طيه للكتاب.

هذا نابليون بونابارت، ونذكره على سبيل المثال لا على سبيل المقارنة، برغم عيوبه ومساويه جعل منه الكتاب الفرنسيون بطلا عالميا وعظيما من أكبر عظماء فرنسا، ولقد فرضوا شخصيته حتى على ابناء البلاد التي اكتسحها واذ لها وعلينا نحن العرب، فتجد اسمه ملء الاسماع والافواه،

في حين أننا نحن المسلمين، عربا وغيرهم، ما نزال نختلف في رجل مثل علي، وقد انقرضت الاجيال وتصرمت القرون ولم تنجب الدنيا ولا جاءت أمة من الامم بمثل علي في علمه وزهده وجهاده وفضائله التي لا تعد ولا تحصى.

هذه أمثلة قليلة جداً مما يلاحظ من التقصير في كتابة تاريخنا، وطريقة عرضه، لم نشأ أن نكثر من ذكر نظائرها وهي كثيرة لنتخلص الى الكلام على الموضوع الاساسي لهذه المقالة بعد التشوف اليه واثارة الاهتمام به، لانا جعلنا منه بشارة نزف الى القارىء بهذا العنوان الذي قدمناه به، وهو في الحقيقة عنوان على قدر المحتوى لا تزيد فيه ولا مبالغة.

أمامي سلسلة أو مجموعة من الكتب الخاصة بحركة الفتح الاسلامي تحمل هذه الاسماء (الرسول القائد) و (الفاروق القائد) و (قادة فتح العراق والجزيرة) و (قادة فتح بلاد فارس) و (عقبة بن نافع الفهري) و (قادة فتح المغرب العربي) وهي كلها من تأليف اللواء الركن محمود شيث خطاب عضو المجمع العلمي العراقي، وأحد وزراء العراق السابقين، وزميل رشيد على الكيلاني في جهاده وما إلى ذلك من الماضي الضخم والحاضر الملىء بالاعمال. عرفته فعرفت فيه المومن الصادق والقائد الاسلامي المحنك، والعالم اللغوي الذي ينفرد بخبرته العسكرية من بين اعضاء مجمع بغداد ويشارك بانتاجه في اثراء لغتنا الضادية على هذا الصعيد من الخبرة التي قل ان تجتمع مع الثقافة اللغوية الواسعة.

وهذا إلى التدين والتقوى والخلق الرضى الذي جعلني كأني كنت أعرفه من زمن بعيد، فلما اطلعت على انتاجه القيم هذا الذي ذكرته، اكبرته وأحببته وعلمت أني بازاء شخصية فذة من الشخصيات التي تعقد عليها الخناصر.

ولبيان الاهمية الكبرى التي لموضوعات هذه الكتب اذكر انني في سنة 1362 بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على فتح عقبة بن نافع للمغرب كتبت ترجمة هذا الفاتح العظيم فألمعت فيها بتاريخه وحللت شخصيته وذكرت النتائج القريبة والبعيدة التي ترتبت على عمله الخالد والتي من أجلها اسلام الشعب المغربي واستعرابه وتقدمه لفتح بلاد الاندلس بقيادة احد ابطاله الافذاذ وهو طارق بن زياد بعد ثلاثة عقود فقط من السنين مرت على وصول عقبة إلى المغرب، ثم اردت أن اتناول بشيء من التفصيل خطته الحربية وحركته السريعة في هذا الفتح الخاطف الذي لم يستغرق أكثر من سنة واحدة ولكني تعثرت في ذلك، ولم يكن للمؤرخين المسلمين نظر في الموضوع، فلجأت إلى الكتاب الاجانب فلم أجد عندهم ما أطمئن إليه، وهكذا لم استطع ان احرر هذا المبحث مع أنه ضروري لتعليل النجاح الباهر الذي حققه عقبة في فتحه للمغرب.

وزيادة في البيان لهذه النقطة أنقل من كلام المؤلف هذه الفقرة التي وردت في مقدمة كتابه الفاروق، القائد لما فيها من تأييد لكلامي هذا وهي قوله:

«ان انس فما أنس يوم كنت تلميذا في الكلية العسكرية عام 1356هـ (1937م) وضابطا في كلية الاركان عام 1367-1368هـ (1947م-1948)م وكان تاريخ الحرب احد المواضيع التي تدرس في هاتين الكليتين العربيتين في العراق البلد الاسلامي، فقد ملأ ذلك التاريخ عقول التلاميذ والضباط فيها بفيض غامر من أسماء القادة الاجانب... والعجيب أن بعض تلك الاسماء هم قادة جيوش الاستعمار في الحرب العالمية الاولى (1914-1918م) الذين أدخلوا الاستعمار إلى البلاد العربية، ويكفي ان أذكر ان من محاضرات تاريخ الحرب المهمة في الكلية العسكرية موضوع حرب العراق، وهي الحرب التي استعمر بها البريطانيون وادى الرافدين !... ولم اسمع حين كنت تلميذاً وضابطاً في هاتين الكليتين محاضرة واحدة عن قائد عربي مسلم مثالا للقادة الفاتحين.»

ويقول المؤلف في فقرة اخرى :(ان تاريخ العرب المسلمين الحربي، مفخرة من مفاخر تاريخ الحرب انعالمي، وهذا التاريخ إذا أحسن عرضه ونشره - غني بالدروس والعبر لكل عربي ولكل مسلم، بل لكل منصف من غير العرب والمسلمين. فلماذا يستورد العرب والمسلمون الدروس والعبر من تاريخ الامم الاخرى ويتركون تاريخهم وراءهم ظهريا؟ هذه هي موضوعات تلك الكتب، وفي الحقيقة هي موضوع واحد بذل المؤلف الفاضل ما ليديه من جهد وعلم وخبرة لابرازه وبيانه وتوضيحه بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً في كتاب من الكتب ولا تاريخ من التواريخ، ومن ثم قلنا أنه فتح جديد في كتابة التاريخ الاسلامي.

والمؤلف يأتي بالاسماء والمصطلحات الفنية فيطبقها على الحروب الاسلامية سواء منها غزوات النبي (ص) وحركات الفتح في عهد الخلفاء، ويميز كل تدبير بصفته وكل خطة بطابعها، فتشعر وأنت تقرأ الكتاب كأنك تتلقى دروسا في الفنون العسكرية، وتشاهد المعارك الحربية كيف تدار، ثم هو بناء على ذلك يقوم التاريخ الحربي للفتوحات الاسلامية فياتي به في الذروة والسنام، وهذا هو الجديد في هذه الكتب، لانه عمل مبني على الدراسة المستأنية والاطلاع الواسع والمقارنة الدقيقة الوافية.

ولا يغفل المؤلف التركيز على العروبة والاسلام معا، فكلما ذكر العرب وصفهم بالمسلمين، علما منه بأنه لولا الاسلام لما كان للعرب شأن يذكر، فهو الذي رفع من ضعتهم وأخذ بضبعهم وأناف بهم على اليفاع، واليوم يتنكر القوميون العرب للاسلام انقياداً في حبل شرذمة من متعصبي نصارى العرب الذين لم يرضهم كل ما في الاسلام من تسامح حتى صاروا يطالبون بابعاد الدين عن القومية العربية، وهم يسرون حسوا في ارتغاء أي أن يتنازل سبعون مليونا من العرب المسلمين عن عقيدتهم ارضاء لواحد ونصف في المائة عربي نصراني لهم ما ليس لاية أقلية في الدنيا قاطبة من الحقوق والامتيازات: وما علموا ان منا من يفضل ان يكون مسلما من فلندا او من الفلبين على ان يكون في ذؤابة العرب وهم غير مسلم! ..

ويعجبك من المؤلف تفهمه لروح التشريع الاسلامي وعرضه لتاريخ الدعوة على وجهه، فجهاد النبي عليه السلام مر بأدوار

إن يكن منها دور الدفاع فإن منهـا ايضـا دور الهجـوم (الفاروق القائد ص 21) لا كما يقال في التبريرات الواهية لفرض الجهاد في الاسلام، والا فبماذا نفسر حروب الـردة إن لم يكن الامر منسجما اولا واخيرا ؟.

وعدم قسم الارض من عمر ليس هو من نزع الملكية أو تحديدهـا، كما يفهمـه بعضهـم، لان هذه ارض للدولـة، وإنما هو من ارصاد مصالح الامة لمنفعتهـا ولذلك سهل عليه أن يضع الضمان الاجتماعي للجنـود موضـع التنفيذ قبـل أن تحلم به اوروبا وأمريكا باربعة عشر قرنا، فلا يقولن قائل: ان من مزايا هؤلاء ضمان الرواتب للجنود ولاسرهـم في حياتهـم وبعد موتهـم، فقد كان نصيـب المسلمين من كل ذلك في عهد عمر أوفر نصيب (ص 118)

ويطول بي الحديـث إذا اردت ان اتتبع المادة الوافـرة التي تحتوي عليها هذه المجموعة من الكتب وهي تنيف على ألفى صفحة بالتثنية، وما فيها من جديد نافع وعلم واسع، ولعل ذلك لايفى به الا كتاب مستقل يوضع إلـى جنب المجموعـة فيكون دليلا لما تتضمنه من مباحث فيها من الابداع بقدر ما فيهـا من المتاع. فلنكتف بهذه الكلمة التي نرجو ان تكون على اختصارها تعريفا بعمل المؤلف يثير الشوق إلى قراءة كتبه هذه فلن يدرك قيمتها غير قارئها. وانا لنهنئه بما أوتي من توفيق ونجـاح ونسال الله لـه كامل العون والحفظ حتى يتم باقي حلقات السلسلة التي ستكون ذخيرة للمكتبة العربية وطغراء لتاريخ الاسـلام..

الدكتور زكي محاسني في ذمة الله

كانت وفاة الدكتور زكى المحاسني في الشهر الماضي خسارة فادحة للادب العربي، فهو اديب ضليع ومؤلف مبدع جاوزت شهرته حدود بلاده سوريا وأصبح علما من أعلام الفكر المعاصر في العالم العربي قاطبة، لا يختص به مشرق دون مغرب، لانه من الافراد القلائل، من حملة الاقلام في المشرق العربي الذين كانوا يهتمون بالنهضة الادبية في بلاد المغرب، ويتتبعون ءاثارها بشغف واعجاب، وهو إلى ذلك رجل اجتماعي له علاقات واسعة بعدد كبير من أهل العلم ورجال الادب في كل بلد عربي، لا يفتأ يتكاتب واياهم ويطارحهم من نفثات يراعه المثقف كل نفيس غال.

والدكتور زكى المحاسني له ثقافة عالية احرز على الدكتورة في الادب والفلسفة بجامعة القاهرة بعد ما حصل على شهادة الاجازة في بلده دمشق، وهو يحسن اللغة الفرنسية، يكتب بها ويقرأ ويتكلمها بطلاقة، ويمتاز الدكتور محاسني ببداهة القول وغزارة الانتاج وهو ينظم الشعر الجيد، ويكتب النثر الرصين ويعتبر من الادباء المحافظين على الاسلوب العربي المتين في شعرهم ونثرهم، ولما أهديت له ديوان

شعري (لوحات شعرية) كتب عنه مقالة بارعة، ولكنه استنكر ما جاء فيه من بعض القصائد على نمط ما يسمى بالشعر الحر وشبهه بالميني جيب، تمسكا منه بفكرة المحافظة، وامعانا في الحرص على ثرات الاجداد، وإن كان في الايام الاخيرة، على ما قرأت له من تعليق على بعض الدواوين الشعرية، قد لانت قناته بعض الشيء ازاء هذا الشعر البدع.

واشتغل الدكتور محاسني بالتدريس في بلده وفي بلاد عربية أخرى كما عمل ملحقا ثقافيا في سفارة سورية بمصر ومديراً عاما للتراث ودائرة المعارف بوزارة الثقافة السورية والف كتبا قيمة منها كتابه عن شعر الحرب عند العرب وكتابه عن المتنبي وديوان شعر كبير غير مطبوع وملحمة شعرية عن تاريخ العرب والاسلام، وقد نال بأعماله هذه تقديراً كبيراً في الاوساط الادبية بالبلاد العربية واخيراً انتخب عضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة الثامنة والثلاثين للمؤتمر السنوي الذي انعقد في فبراير من السنة الحالية وكم كنت سعيداً بالتصويت على هذه العضوية التي كانت في محلها باتفاق الجميع. وعلاقتي بالدكتور محاسني ترجع إلى نحو من ربع قرن، حين كتب إلى واهدى إلى بعض كتبه. فتوثقت الصلة بيني وبينه على البعد، ولما زرت دمشق في سنة 1957 تلاقينا وتعارفنا شخصيا وبالغ في اكرامي واهدى الى بعض طرائف دمشق، وبعض كتب قرينته السيدة وداد سكاكيني الاديبة السورية المعروفة إلى قرينتي، واظهر كثيرا من الفرح والدهشته لرؤيته اياى بالملابس الافرنجية، فقلت

له ان ملابسنا غريبة على الناس في الشرق والغرب ولذلك تكون مثار انتباه وتعجب، وحكيت له بعض ما وقع لي من المضايقات في أول سفرة لي الى أوربا مرتديا الملابس الوطنية، وانا لا اتحمل تطلعات الناس وملاحقتهم، وبقي مع ذلك يتذكر لقاءنا هذا والمفاجأة التي حصلت له وهو يراني بالزي الافرنجي، وكان يعرفني من الصورة التي سبق ان قدمتها له بطلبه في لباسي المغربي الفضفاض.

وكان كلما قدمت له بعض كتبي، يقرظها في الصحافة الادبية العربية ويبالغ في اطرائها ويحليني بحلى وأوصاف تكبر وتجل عني كثيرا، مما كان يوقعني في خجل عظيم، وكذلك كان يحليني في رسائله الي، وآلاحظ عليه ذلك فلا يبالي ويتمادى في عمله، ولولا أني اعرف اخلاصه وطيب سريرته وكرم اخلاقه وحسن ادبه لظننت انه يسخر مني وقد قلت له ذات مرة: انك لم تزر المغرب ولم تعرف من فيه من كبار العلماء والادباء الذين لا أعد شيئا بجانبهم فكيف تحليني بعلامة المغرب واديبه؟ فاستمر على عمله وصار يحليني بعلامة المغرب والمشرق وقال انك تعلمنا اشياء لا نعرفها فضحكت واستغفرت الله عز وجل.

ولكنى ازاء اصراره لم املك الا ان اعلن في الصحافة في بعض اجوبتي له عن اعتذاري مما يصفني به وأبين للقراء انني لست عند نفسي ولا في واقعى كما يقول الدكتور الصديق، وان المودة وعين الرضى وسلامة الصدر هي التي تحمله على المبالغة في مدحي وتقديري، فلا يأخذ

أحد ذلك على حقيقته ولا يظن انني راض او موافق عليه.

ومن اللطائف الادبية التي جرت بيني وبينه انه كتب الي شاكيا من وضعيته في الادارة ومجاوزة بعض الموظفين له ممن هم دونه كفاءة ومؤهلات بل ترأس بعضهم عليه فأجبته مسليا له بما اقتضاه الحال وانشدته ابياتا تنسب للامام مالك في هذا الصدد وهي:

اذا رفع الزمان عليك شخصا | وكنت احق منه ولو تصاعد
انله حق رتبه تجده | ينيلك ان دنوت وان تباعد
ولا تقل الذي تدريه فيه | تكن ممن عن السوأى تقاعد
فكم في العرس ابهى من عررس | ولكن للعروس الدهر ساعد

فحلت منه هذه الابيات محل الاستحسان واجاب عنها بأبيات من وزنها وقافيتها يمدحني بهما ويذكر أثر تلك النصيحة في نفسه، فرجعت اليه جوابا هذه الابيات:

صديق في مكانته قريب | وان كان المكان به تباعد
(زكي) النفس ذو خلق رضي | فمما قد تنازل قد تصاعد
(محاسنه) على الايام تتلى | وكائن من بها قدما تواعد
بنى فيها على أصل كريم | ولم يك عن مداركها تقاعد

وأشرت في البيت الاخير الى سلفه المذكور في نفع الطيب.

وكتب الى بعد غياب طويل رسالة ضمنها ابياتا ستة مطلعها:

سقى الله عهدا بات ندمان قاطعه | تسائله الافلاك اين مطالعه

فأجبته عنها بهذه الابيات:

لظن سلو الخل مما يطاوعه | فلم يفتأ الود القديم ينازعه
ومال عن الذكرى زمانا فما ائتلت | تناشده العهد الذي هو قاطعه
فلا يستهن بالود من علقت به | ورقت عليه روحه واضالعه
فان مودات الرجال ذخيرة | يفيء اليها من تضيق مشارعه
اليك ابا ذكوان مني تحية | كأن شذاها من خلالك ساطعه
وعندي هيام ليس يخبو اواره | بانتاجك السهل الممنع بارعه
فصلني ولا تقطع أواصر بيننا | من الادب المستبدعات صنائعه

وخاطبني مرة أخرى بقصيدة بارعة مطلعها:

غن شعري على شطوط المغارب | ان لي في ربوعها خير صاحب

وتعرض فيها لمدح جلالة الملك ولم اجبه عليها، لان جوابه كان هو استدعاؤه لزيارة المغرب الذي يتلهف شوقا اليه مثل كثير من ادباء المشرق الكبار، ولكن من يستدعيهم او يحفل بهم،؟ فالدعوات توجه الى الصحفيين والكتاب الاجانب لا الى ادباء العروبة ورجال الفكر في المشرق.

ولما علم بوفاة والدتي رحمها الله رثاها بقصيدة عامرة، وطلب مني نشرها في مجلة دعوة الحق . . ولكني لم أفعل لان المجلة لم تنشأ لمثل هذه الأغراض. وهذه الاشعار كلها مثبتة في ديواني المرسوم (صنوان وغير صنوان) الذي يضم ما خوطبت او خاطبت به من الشعراء ومحاورات اصدقائي الادبية.

وكان الدكتور محاسني يلقي في بعض الاعيان احاديث ادبية من اذاعة لندن، وحين يكون موضوع الحديث يتعلق بالمغرب وادبائه يشعرني بذلك بواسطة البرق حتى انصت لحديثه.

كما كان يكتب في بعض المجلات العربية كلمات تحية أو تقريظ ويفاجئني بقصاصاتها من غير اعلام سابق ومن ذلك كلمة في احد اعداد مجلة الاديب البيروتية بمناسبة صدور كتابي لقمان الحكيم منذ سنتين ختمها بهذين البيتين:

لئن طلعت شمس الكواكب في الشرق فشمسك في الآداب تطلع في الغرب
كذا زين الانسان في الكون صنعه فيا باقع التأليف والفكر في العرب

وذكرت هذين البيتين هنا وان لم يكن من المناسب ان اتبجح بشعر في مدحي، لاقول ان جوابي عنهما كان تصديرا تضمينيا لقب المدح الذي تضمناه في اليه ورد معناهما عليه، مع تلافي ما وقع في عروض اولهما من الكف من غير تصريع. وهذا هو التصدير:

يقول صديقي محرزا الخصل في السبق وناسج برد النظم والنثر بالذوق
لئن طلعت شمس الكواكب في الشرق فشمسك في الاداب تطلع في الغرب
فقلت وقصري ان اساجل وضعه وانشد فيه ما يماثل طبعه
كذا زين الانسان في الكون صنعه فياباقع التأليف والفكر في العرب

وكان مع هذا الشعر نثر ارسل الى مجلة الاديب ولم أعرف هل نشر بها ام لا، لأن هذه المجلة لا تصلني بانتظام.

هذه صفحة من حياة صديقي الحميم المرحوم الدكتور زكي المحاسني حرصت على ان اثبتها هنا تعريفا بفضله واعترافا بجميله وتسجيلا لما ربما غاب منها عن ذويه واصدقائه الكثيرين في المشرق واحياء لذكراه بعد مفارقته لهذا العالم الذي طالما تنكر لاهل الفضل والعلم امثاله وتوفية لبعض

حقه علينا نحن اصدقاءه الذين كان يملأ جنبات حياتنا حبا وصفاء ويفيض علينا من أدبه الحي وخلقه النبيل ما تشرق به نفوسنا وتغتبط به قلوبنا. فسلام عليك أيها الاديب الفذ والاستاذ الاوحد ورحمة الله تعالى وبركاته تغشاك في مقرك الاخير بالروح والريحان والمغفرة والرضوان وعزاء جميلا للسيدة وداد اديبة الشام وانجالك الغر الميامين الاساتذه ذكوان وذكاء وسماء ولجميع أصدقائك في المشرق والمغرب، والله يعوض الامة العربية منك خير العوض ويخلد ذكرك في سجل العلماء العاملين. وانا لله وانا اليه راجعون.

الكاف التمثيلية

اقتبست اللغة العربية في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وما تزال تقتبس بطريق الترجمة عن اللغات الاخرى، عبارات وصوراً كلامية كثيرة أثرت محصولها من البيان وان كان ثريا من قبل، ولكنها زادته، ونوعت طرق الاداء فيها، وقد كانت متنوعة بدونها، إلا أنها توسعت نتيجة لذلك بكيفية ملحوظة. وهذا لان اللغة كائن حي يزيد وينمو بالغذاء والتطعيم، ويضوى ويضمر بترك التعهد والعناية.

ففي العهد الجاهلي كانت العربية لغة مستكملة التكوين، تفي بالتعبير عن مقاصد أهلها ومشاعرهم، وهي إلى كونها لغة مجتمع محدود الاغراض والمصالح، قد اضطرت إلى الاقتباس من لغات أخرى مشتركة معها في الاصل أو مختلفة، فأخذت منها عديدا من الكلمات تسمى بالدخيل، ولم يزر بها ذلك في شيء، لا سيما وهي في حيويتها وفعاليتها قد صاغتها صياغة خاصة، وأضفت عليها من طابعها الاصيل ما جعلها تبدو كأنها من صميم الضاد.

وهذا في الالفاظ شيء معلوم لا جدال فيه، وأما في التركيب والتعبير فغير بعيد ان يكون العرب في جاهليتهم

قد تأثروا بغيرهم في بعض الصور الكلامية مما كانوا يسمعونه من هذه اللغة أو تلك، بناء على عموم قاعدة الاخذ والعطاء، ونحن نعلم ما لاحظه قدماء النقاد على عدى بن زيد العبادي وأعشى قيس ومن ماثلهما في الاتصال بالعجم، من ذكرهما لاشياء لا تعرفها العرب، حتى إن بعضهم توقف في الاستشهاد بهما، فهذا من ذلك. وهو تحفظ شبيه بتحفظ بعض لغويينا إزاء كل جديد في عصرنا هذا وقلبه.

فلما جاء الاسلام وغمر العرب بعقيدته وتشريعه ونظرته الشاملة للمجتمع والحياة، اتسعت دائرة اللغة العربية لفظا وتعبيراً، وتعزز البيان العربي بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وأصبحت لغة العرب لغة دين ودولة ومجتمع متحول من حياة البداوة إلى حياة المدنية التي جاءت بدعاً في المدنيات لا تشبه غيرها بما لها من سمات خاصة ومثل متميزة، فلا غرو أن يغنى الاسلام هذه اللغة ويجعل دلالاتها ذات أبعاد تقصر عنها اللغات التي احتضنت الحضارة الانسانية قبلها، فلا تملك إلا أن تنقل عنها وتقتبس منها بعد أن اعتنق أهلها الدين الجديد. وكان ذلك مما حمل الاسلام لالفاظها من معان جديدة، وما أتى به من تعابير لم تكن تعرفها من قبل.

وفي هذا الصدد يذكر علماؤنا عبارات وجملا مما أتى في القرآن ولم تنطق به العرب قبله كجملة، «سقط في أيديهم»، أو في السنة كعبارة «حمى الوطيس».

ثم كان عهد الترجمة والنقل لعلوم الامم المتقدمة ومعارفها، وما كان لذلك من تأثير في اللغة العربية سواء

من حيث اقتباس المصطلحات العلمية أو وضعها، أم من حيث مجاراة عبارات المؤلفين أو ترجمتها، كله معلوم للجميع فلا نطيل به.

ولا ريب أن ما جرى ويجرى في عصرنا هذا هو من هذا القبيل، فالاخذ والعطاء من سنن الحياة، ولا غضاضة على العربية أن تتبنى ألفاظاً وعبارات بله الصور الكلامية التي يستحسنها الكتاب والمترجمون من لغات أخرى، إذا كانت تنسجم مع الاسلوب العربي، ولو كان هناك ما يماثلها. فقد وضعنا الهاتف. ولكنا ما نزال نقول التلفون، ووصف الدكتور لا نجد من يتنازل عنه، ولو كان من أكثر الناس تحفظاً في هذا الصدد، مع أن وصف الطبيب موجود في العربية من قديم.

وهكذا نرى ان ثروة اللغة وغناها من ذاتها وبالاقتباس، شيء واقع ومرغوب فيه، حتى ولو أدى إلى خرق بعض القواعد المقررة، كما نفعل هنا في هذا المجمع أحيانا.

وما أعرضه على أنظاركم اليوم هو تعبير من مئات التعابير التي دخلت العربية في العصر الحديث وجرت على الاقلام والألسن، فلم ينكرها أحد، ولا اعترض عليها معترض، بل اعتبر ذلك من التجديد للغة والتوسع في طرق البيان، وحقا هو كذلك، فقد أصبحت العربية بمقتضاه تساير ركب الحضارة الجديدة ولا تتخلف عنه في شيء، ولا سيما في حقل الادب والفن والعلوم الانسانية والسياسة

والاجتماع، ولكن هذا التعبير ما يزال توجه إليه النظرات الشزراء من رجال اللغة، وينبذه المتحفظون، وإن كان مما شاع وذاع وملأ الاسماع، كما نقول فيما حفظناه من الاسجاع.

إنه التعبير الذي تدخل فيه هذه الكاف التي حبب إلى أن أسميها الكاف التمثيلية، فرقا بينها وبين كاف التشبيه، ولانها تقع موقع «مثل»، وهي المقابلة لـ **Comme** الفرنسية و **Como** الاسبانية في مثل قولنا: فلان كسفير يمثل بلاده أحسن تمثيل، والوالي كأحد رجال السلطة يجب أن يحتفظ بهيبته.

ولمزيد الايضاح أبين كيف تقع هذه الكاف في عنوان بحث كنت ألقيته في هذا المجمع منذ سنتين، وهو ابن رشد الفقيه.

فقد كتبت هذا البحث عن الحفيد ابن رشد، واسمه محمد وكنيته أبو الوليد مثل اسم جده وكنيته تماما، واشتهر هو بالفلسفة كما اشتهر جده بالفقة. وأردت أن يكون عنوان البحث دالا من أول وهلة على المراد، فقلت أجعله الحفيد ابن رشد الفقيه أو فقيها، فلم أجده يؤدى ما في نفسي - اوفقيها فوجدته بوضوح مع طوله، وقلت أجعله الفيلسوف ابن رشيد الفقيه- يقارب، ولكنه ربما أو هم أنى أتناوله بوصفيه الفقيه والفيلسوف، في حين أنى لم أتكلم إلا على الناحية الفقهية من ترجمته. وعرض لى استعمال هذه الكاف بأن أقول ابن رشد الفيلسوف أو الحفيد كفقيه، فوجدتها أدل على المراد من كل ما سبق، ولكن استعمالها مرغوب عنه، لاسيما وأنا أعرض بحثى في مجمع اللغة العربية.

فعدت إلى العنوان الذي خطر لي أول مرة، وهو ابن رشيد الفقيه، اتكالا على أن الشهرة المطبقة لهذا الاسم، بين العرب وغيرهم، إنما هي للفيلسوف لا للفقيه. وقد ترجم ذلك البحث إلى الاسبانية ونشر بمجلة الفكر التي يصدرها المعهد الاسباني للفلسفة في العصر الوسيط بعنوان **Averroer ELyurista** وكان واضحاً أشد الوضوح أن المراد به الحفيد لا الجد. على أني في طالعة البحث بينت أني إنما أعنى صاحبنا الفيلسوف لاجده الفقيه.

لذا ولما قدمت من أن اقتباس التعابير اللغوية كاقتباس الالفاظ، لا ضير فيه، حتى لو كان هناك ما يماثلها، فإنه يعد كالترادف قلما يخلو من فرق دقيق بين معانية، وكذا الجمل والتراكيب، أقول لما ذكر فكرت في أن أحاول تخريج هذه الكاف وأوجه استعمالها على نحو مقبول في العربية. فرجعت إلى المعانى التي يذكرها علماؤنا للكاف، فإذا هي أربعة عند ابن ماالك، كما قال في الالفية:

شبه بكاف وبها التعليل قد يعنى وزائداً لتوكيد ورد

. واستعمل اسما.

وعند ابن هشام في المغنى ستة بزيادة الاستعلاء والمبادرة.

وقد استبعدت منها هذين المعنيين الاخيرين لانهما لاينطبقان على هذه الكاف التي نتكلم عليها. وكذلك معنى التشبيه لانه الذي يتطرق منه النقاد إلى ضعف إستعمال هذه الكاف فيه. إذ كان المشبه فيها هو عين المشبه به،

فإن قول الشخص مثلا أنا كـكاتب لا أتحرج من استعمال هذا التعبير، إنما يعنى نفسه. فاختل حينئذ أحد أركان التشبيه، وإن كنت أنا شخصيا لا أرى ذلك ضربة لازب، فيجوز أن يعنى غيره، ويحسن ذلك قصد التواضع في حالة التكلم كما في مثالنا هذا.

بقى معنى التعليل، وقد مثلوا له بقوله تعالى: (فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) أي لهدايته لكم. وقيده قوم بكون الكاف مكفوفة بما، ولكن ابن هشام رد ذلك واستدل بقوله تعالى: (وى كأنه لا يفلح الكافرون) أي أعجب لعدم فلاحهم، ولا أظن آن هذا المعنى يمتنع في المثال الثاني من المثالين السابقين، وهو قولنا: الوالي كأحد رجال السلطة يجب أن يحتفظ بهيبته، والتقدير لانه أحد رجال السطة، فما وافقه كان مثله كقولنا: فلان كوزير لاينبغي له أن يتعاطى التجارة.

ثم معنى الزيادة، ومثل له النحاة بقوله تعالى: (ليس كمثله شيء)، التقدير ليس شيء مثله، إذ لو لم تكن زائدة للزم إثبات المثل له تعالى؛ وإنما زيدت لتوكيد النفى، وهذا هو قول ابن مالك (وزائدا لتوكيد ورد).

والمتكلمون لا يقولون بزيادة الكاف في هذه الاية، بل يعتبرونها أصلية ويجعلون الاية من باب الكناية، ويقولون إنها إن دلت على نفى مثل المثل فذلك نفي للمثل، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء اللازم.

وكذلك المفسرون. قال أبو حيان في البحر: تقول

العرب: مثلك لا يفعل كذا، يريدون به المخاطب، كأنهم إذا نفوا الوصف عن مثل الشخص كان نفيا عن الشخص، وهو من باب المبالغة. ومثل الاية قول أوس بن حجر:

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه في الفضائل

وقول الاخر:

وقتلى كمثل جذوع النخيل   تغشاهم مسبل منهمر

وقال آخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم   ما إن كمثلهم في الناس من أحد

فجرت الاية على نهج كلام العرب من إطلاق المثل على نفس الشيء.

وقال الزمخشرى في الكشاف: قالوا مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية، لانهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه. ونظيره قولك للعربي: العرب لاتخفر الذمم، كان أبلغ من قولك أنت لا تخفر. ومنه قولهم قد أيفعت لداته وبلغت أترابه يريدون إيفاعه وبلوغه. وفي حديث رقيقة بنت صيفى في سقيا عبد المطلب: ألاوفيهم الطيب الطاهر لداته. والقصد إلى طهارته وطيبه. فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله ليس كمثله شيء، إلا ماتعطيه الكناية من فائدتها. وكأنهما عبارتان معتقبتان

على معنى واحد، وهي نفي المماثلة عن ذاته. ونحوه قوله تعالى: (بل يداه مبسوطتان) فإن معناه بل هو جواد من غير تصوير يد، ولا بسط لها، لانها وقعت عبارة عن الجود لايقصدون شيئا آخر، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له. ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررها من قال:

وصاليــات ككما يـؤثفيــن

ومن قال: فأصبحت مثل كعصف مأكول

وفي التلخيص للقزويني: ومما يرى تقديمه كاللازم لفظ مثل وغير في نحو مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود إلخ. قال السعد في شرحه: إذا استعملا يعنى مثل وغير على سبيل الكناية بأن يراد بالمثل والغير إنسان آخر مماثل للمخاطب أو غير مماثل، بل المراد نفي البخل عنه على طريق الكناية، لانه إذا نفي عمن كان على صفته من غير قصد إلى مماثل لزم نفيه عنه وإثبات الجود له بنفيه عن غيره.

فتلخص من هذا أن الكاف، وهي للتشبيه، قد يعنى بها ما يعنى بمثل، أي ذات الشخص والشخص نفسه.

فإذا قلنا فلان كسفير يمثل بلاده احسن تمثيل، فالمراد فلان نفسه، وإنما عدلنا إلى هذا التعبير قصد الكناية التي هي أبلغ من التصريح.

وقد تأكد بهذه النقول ما قدمته من أن كاف التشبيه قد تدخل هنا، لان المشبه به أعم من أن يراد به المشبه نفسه.

وخامس معاني الكاف أن تكون اسمية بمعنى مثل، فتعرب حينئذ بما يقتضيه المقام نحو زيد كالاسد.

قال في المغنى: الكاف في موضع رفع والاسد مخفوض بالاضافة. وكثيرا ما يقع هذا في كتب المعربين. وعليه فإذا قلنا زيد كأديب له شهرة عالمية، كان معناه زيد مثل أديب بنصب المثل على الحال، ولعله أن يكون على ما تقدم أبلغ من قولنا زيد أديبا، وقلت لعله، لاني لا أجزم بهذا الحكم أو لا آخذ بهذا النظر الذى شرحته حتى يحصل على موافقتكم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

اللهـب المقـدس

إن مجرد الاعلان عن صدور ديوان شعر لشاعر من المغرب العربي ليعد بادرة طيبة من بوادر البعث الادبي في هذه البلاد فكيف اذا كان ذلك الديوان هو ديوان اللهب المقدس، والشاعر هو مفدى زكرياء شاعر الثورة الجزائرية بحق !

انه ديوان يملأ العين والصدر بمظهره ومخبره، فالطبع والاخراج من ابدع ما يكون، والمحتوى شكلا ومضمونا مما يعلو ولا يعلى. ولسنا مع الشاعر فى قوله: «لم اعن في اللهب المقدس بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائر الحقيقى بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة.. والشعر الحق - في نظرى - إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة» لسنا معه في ان الشعر ليس فنا ولا صناعة مع الاقرار بأنه إلهام وعفوية، لكن هذا الالهام وهذه العفوية في الشاعر الحق، لا يتجردان قط عن الفن والصناعة، وكذلك صاحبنا لم يقصر فيهما بحال.

ويقول الشاعر مفدى زكرياء فى تعريف شعره: «قد لا يجد عشاق ما يسمونه بالشعر الجديد في اللهب المقدس ما يشبع غرائزهم المشبوبة في جحيم النهود والبراعم والفساتين، ولكن سيجد فيه (الشعراء الناس) صلة رحم وثقى بعز امجادهم وتجاوبا صادقا مع مشاعر العروبة الزاحفة في كل بلد عربى بقدر مالكلمة عروبة من عظمة وجلالة وسيجد فيه رواد التجديد الرصين ما يدعم عقيدتهم فى ان عمود الشعر العربي، غير

المغموز النسب، يبقى شامخا امام اي تجديد في التعبير والتفكير في حدود الشخصية الذاتية للغة صمدت في وجه الزمن، ونحن نرى ان هذا الشعر الذي وصفه صاحب ديوان اللهب المقدس بأنه تجاوب صادق مع مشاعر العروبة الزاحفة في كل بلد عربي، هو ما يطلبه العرب اليوم من كل شاعر ينتمي الى الضاد، وهو الشعر الهادف الذي يواكب نهضة الامة العربيه ولا يتخلف عن ركبها الصاعد. واما عن التجديد فانا وان كنا لا نأباه، الا اننا لا نرغب في تجديد يكسر عمود الشعر العربي الصلب الذي قاوم مختلف العوامل كما قاومت هذه الامة التي انتجته كوارث الدهر وعوادى الزمن.

وبعد فهل يطابق شعر اللهب المقدس ما وصف به صاحبه الشعر الحق؟ الجواب أنه اوفى على المطلوب منه. وان الثورة الجزائرية في عظمتها وخلودها ليحق لها ان تفتخر بشاعرها العظيم الخالد مفدى ذكرياء الذى جعل من اللهب المقدس ديوانها المعبر عن ارادة شعبها والممجد لبطولة ابنائها مما لم تظفر به اية ثورة عربية - في نظرنا - الا ثورة فلسطين الشهيدة.

وامر آخر لا يجوز اغفاله، وهو ان ديوان اللهب المقدس لما يردده من صدى الاحداث الوطنية الكبرى في كل من تونس والمغرب، حقيق ان يعطى لصاحبه وصف شاعر المغرب العربي زيادة على وصف شاعر الثورة الجزائرية الذي عرف به. ولذلك فنحن نهنىء صديقنا الاستاذ مفدى زكرياء بتوفيقه ونجاحه في اخراج هذا الديوان القيم محققا لاماني العروبة ومؤكدا لمستقبلها في بلاد المغرب الكبير.

الزجل في الاندلـس

أصل هـذا الكتاب محاضرات ألقـاها صاحبـه في معهد الدراسات العربية العالية، وقد فصل الكلام في موضوعه الى ثلاث فصول نشأة الزجل، وحياة الزجالين، ومكانـة الزجل وقيمته الادبية. ثم تناول كـل فصل من هذه الفصول بما لا مزيد عليه من الدرس والتحقيق. فعن نشأة الزجل يرى الدكتور عبد العزيز الاهواني أنه هو والتوشيح يرجعان الى أصل واحد، هو الاغنية الشعبية التي كان لها الفضل في ظهور التوشيح والاثر في استقلال الزجل وتطوره . . وذلك في الاندلس، فهي اذن مبعثهما معا ومنبتهما جميعا، ومنها صدرا الى المغرب والمشرق. ويستدل على ذلك فيما يستدل به (بالخرجة) التي هي ختام الموشحة فإنها كثيراً ما تكون في لغة عامية أو أعجمية، وهذا يعنى أن الزجل بعد تطوره احتفظ بهذا الاثر الذي وقع البنا،عليه دلالة على الاصل القديم. وقد أورد خرجات عديدة يؤيد بها هذا الرأى وتنجسم معه تمام الانسجام. وتضمين الخرجة في الموشح واضح لا غبار عليه اذ يظهر من الفرق بين لغته المعربة ولغتها الملحونة. أما في الزجل حيث يستويان فى اللحن فقد استدل الدكتور عليها بما جاء في بعض الازجال من التصريح بتضمينها.

ويشير الدكتور هنا إشكالا في معنى الخرجة اذ أنه بالنسبة الى الموشح يدل على الخروج من الكلام المعرب الى الكلام الملحون، ولايكون كذلك في الزجل، ونحن لا نرى أن هذا هو معناها لا في الموشح ولا في الزجل، وانما معناها فيهما معاً النهاية والانصراف فهو خروج حسي لا معنوي، وكأنه هذا الشيء الذي يتكلم عنه البديعيون ويسمونه بحسن الختام للاشعار بالانتهاء كبراعة الاستهلال التي تشعر بحسن الابتداء.

وعن تاريخ الزجل وحياة الزجالين، يتحدث الدكتور فيقول: ان الزجل يرجع الى العهد الذي انحرف فيه التوشيح عن بساطته الاولى وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري حيث عاش عبادة بن ماء السماء. ويوسف بن هرون الرمادي، اللذان أدخلا التغيير على الموشح كما ينص على ذلك ابن بسام في الذخيرة. ويفيض في الحديث عن الزجل في القرن الخامس والسادس، والسابع، والثامن وعند المدجنين فيما بعد ذلك معتمدا في هذا على بعض المصادر الاسبانية، كما أنه أفاض في الحديث عن حياة ابن قزمان بالخصوص، وهو الزجال الذي احتفظ لنا التاريخ بديوانه والذى يعد امام الزجالين قاطبة..

وقد تبطن الدكتور حياة هذا الزجال من تحليل زجله، وأظهر ما في أزجاله، من فن وذوق أدبي وتفاعل مع بيئته الاندلسية التي نعرف مدى احتفالها بمجالس اللهو والطرب والشراب. واذا كنا نختلف مع الدكتور في شيء من هذا الفصل فانما ذلك في قراءته لبعض الازجال أو تفهمه لها، والخطب

في ذلك سهل كما يقولون، اذا لا يترتب عليه خلاف جوهري في موضوع البحث.

وفيما يخص الفصل الثالث وهو مكانة الزجل وقيمته الادبية يضع الدكتور مقارنة بين الشعر والتوشيح والزجل، أوقل بين قالة هذه الفنون من الشاعر والوشاح والزجال، فيحدد مذهب كل وثقافته ويعين جمهوره المعجب به والمشايع له، وهو يجعل الوشاح يقتفى خطى الشاعر ويخاطب الجمهور الذي يخاطبه الشاعر، فلا يبعد بالتوشيح عن مكان القصيدة في وضع أو اعتبار، أما الزجال فهو عنده يقف بين بين، لا الى العامة ولا الى الخاصة، لان فنه وان لم يكن خاصيا رفيعا فكذلك ليس هو شعبيا عاميا، بناء على رأيه السابق في نشأة الزجل من استغلاله وتطوره عن الاغنية الشعبية.

وهكذا نرى عمل الدكتور متساوقا متماسكا مع رأيه في الزجل أولا وأخيرا، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على التمكن والاقتدار.

وبعد، فقد قال الدكتور الاهواني فى مقدمة كتابه : (ان الزجل يكاد يكون مجهولا من عامة المثقفين وخاصتهم، فليس له مكان في كتبنا عن تاريخ الادب العربي ولا في برامج الدراسة في مدارسنا، ونصوصه القديمة بعيدة عن أيدي الناس، وتاريخه وأطواره وموضوعاته ولغته ومكانته في المجتمع، ومنزلته من القصيدة العربية ومن التوشيح ومن الاغنية الشعبية، كل ذلك لم يبسط فيه القول، ولم تخرج فيه للناس دراسات

علميـة يعتمدون عليهـا، ويستغنى بهـا الباحث عن الرجوع الى المـاضي البعيد ، حين يريد أن يتحدث عن الحاضر أو عن المـاضي القريب) وهذا كله مما يجعل لكتابه قيمته بين الكتب التي تتناول تاريخ الادب العربي وتطوره وازدهاره.

مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس

هذه مجموعة من رسائل لسان الدين بن الخطيب عمل على تحقيقها ونشرها الدكتور أحمد مختار العبادي المدرس للتاريخ الاسلامي بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية.

وهذه الرسائل هي: 1) خطرة الصيف ورحلة الشتاء والصيف، 2) مفاخرة مالقة وسلا، 3) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، 4) رحلة ابن الخطيب في بلاد المغرب، وهي طرف من كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

والرسالة الاولى هي وصف للرحلة التي قام بها ملك غرناطة أبو الحجاج يوسف بن نصر الى الثغور الشرقية من مملكته ومعه وزيره لسان الدين، وليست رحلة الى المغرب كما توهم بعضهم ونبه على ذلك الناشر.

أما الرسالة الثانية فإن موضوعها ظاهر من اسمها، ولقد كال ابن الخطيب فيها من الفضل لمالقة بقدر ما بخس سلا حقها ويظهر أن الجرح الذى أوحى اليه في سلا برسالته

(مثلى الطريقة في ذم الوثيقة) لم يندمل قط. فبعد أن تناول في هذه الرسالة الشخص الذى لم يستجب لدعوته بسبب ما تقتضيه خطة الشهادة من الورع - على ما ظنه لسان الدين- وتناول معه الشهود والخطة أيضا، عاد في رسالة المفاخرة فتناول المدينة التي اوته في ابان محنته بما لا مزيد عليه من الازراء، وهذه عادة الادباء في ذلك العصر، بل وكل عصر، الا من رحم ربك. ومن أثنى عليك بما ليس فيك عليك بما ليس فيك.

ولم يشر الناشر الفاضل الى ما يحتمل أن يكون سبب تحامله على سلا من هذه الواقعة، وحبذا لو فعل ذلك، وأضاف الى مجموعته المفيدة رسالة مثلى الطريقة أيضا، فإنها من بابة هذه الرسائل في الجملة. وأما الرسائل الثالثة فهي المعروفه بمقامات البلدان، واسمها هو ماذكره الناشر، وقد وصف فيها ابن الخطيب عددا من مدن الاندلس والمغرب بأسلوبه الفني المعجب، ومنها سلا التي بعد ماذكر كثيرا من محاسنها عاد فذمها أيضا بملخص ما في رسالته الخاصة بها وبمالقة.

وقد طبعت هذه الرسالة بفاس سنة 1325 في مطبعة أحمد يمنى ويظهر أن الدكتور العبادي لم يقف على هذه الطبعة فلذلك لم يذكرها عند اشارته لمن عني بالرسالة من الباحثين والناشرين. وأما الرسالة الرابعة فهي طرف من كتاب (نفاضة الجراب) لابن الخطيب وبالتدقيق هي كما يقول الناشر وصف للرحلة التي قام بها المؤلف في بعض نواحي المغرب حينما لجأ هو وسلطانه المخلوع الى هذه البلاد

ما بين سنة (760) و (763) على ما يذهب اليه الناشر خلافا لما هو مشهور من أن تأليف بن الخطيب لهذا الكاتب كان في المدة الاخيرة التي قضاها بالمغرب قبل وفاته.

ويرى القارىء من هذا العرض أن فائدة هذه الرسائل للدراسات المغربية عظيمة جداء فإذا أضفنا اليها ما علق به عليها ناشرها الفاضل وما مهد لها به من دراسة موضوعية محققة كانت فائدتها أكمل وأهميتها أعظم. ولا نشير الى ما نخالف فيه المحقق من قراءات او تفسيرات لبعض العبارات الواردة في نصوص هذه الرسائل فان ذلك مما لا يقدح مطلقا في عمله من الوجهة العلمية والتاريخة، وكفانا أنه نفحنا بهذه الذخائر الثمينة التي كانت تتقطع دونها الامال، في حلة قشيبة من النشر والتعليق . . على أننا ننبه من جديد الى هذا الاشتباه الذي يقع لبعض الباحثين بين الامير اسمعيل بن الاحمر مؤلف روضة النسرين ونثر الجمان وبين ملك غرناطة يوسف الثالث الذي أثبتنا في مقدمة ديوانه أنه مؤلف كتاب البغية والمدرك من شعر ابن زمرك ونبهنا هناك الى الاشتباه الذي وقع في شأنه لبعضهم بالامير اسمعيل المذكور فلينظر ذلك في مقدمة الديوان المشار إليه.

صحيفـة معهد الدراسات الاسلاميـة في مدريد

صدر المجلد الخامس من هذه الصحيفة محتويا على العددين 1 و 2 اللذين يتكون منهما المجلد الخاص بسنة 1957 وهو يقع في أكثر من 600 صفحة بين قسميه العربي والاسباني، ويحتوي على أبحاث قيمة ونصوص محققة بأقلام جمهرة من كبار الاساتذة العرب والاسبان. وقد شارك فيه أيضا من المغرب الاستاذ محمد بن تاويت والاستاذ عبد العزيز بن عبد الله وكاتب هذه السطور.

ومن النصوص المهمة التي ظهرت فيه رسالة أسنى المتاجر، في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، لابي العباس أحمد الونشريسي صاحب المعيار. وقد قام بتحقيقه والتقديم له الدكتور حسين مؤنس، أما التقديم فهو دراسة موضوعية للمشكلة حقيقة بالتنويه، وأما التحقيق فقد اعتمد الدكتور فيه على نسختين للرسالة، احداهما توجد ضمن مخطوط بمكتبة الاسكوريال يحمل رقم (1758) والثانية هي الثابتة في الجزء الثاني من

المعيار، طبعة فاس الحجرية. وبما أن الخط المغربى ما يزال صعب القراءة علـى بعض اخواننـا الشرقيين، فقـد اشتبهت بعض الكلمات فى نسخة المعيار على الدكتور الفاضل مثل كلمة فحينئذ التي ثبتت كذلك فى مخطوطة الاسكوريال، وجاءت في نسخة المعيار هكذا: فح مختزلة على اصطلاح النساخ المغاربة فأشار الدكتور في التعليق (2) ص (153) إلى أنها في المعيار: (فعجره) ولا شك أن ذلك متأت من عدم الاهتداء الى الاصطلاح المذكور.

ومثل ذلـك كلمة انتهى في صفحة (157) التي علق عليها الدكتور بقوله: (لفظ انتهى وارد في الاصل - يعني مخطوط الاسكوريال ـ ساقط في م «يعني نسخة المعيار» والواقع أنه ثابت في المعيار أيضا بطريقة الاختزال هكذا: (هـ) والكلمات من هذا القبيل كثيرة، وهو في التعليق ينبه على مخالفتها لما في نسخة الاسكوريال. ومخالفتهـا انما جاءت من قراءته غير الصحيحة لهـا.

وأشار الدكتور في صفحة (151) الى كتاب عارضة الاحوذي لابن العربي ومظان وجوده مخطوطا في مكتبات المشرق والمغرب، ولم يشر الى انـه قد طبـع بمصر منذ سنوات مع جامع الترمذى الذي هو شرح له. وفي ترجمة الونشريسي صفحة (132) ورد أنه أكب على تدريس المدونة وفرعي ابن الحاجب وبعد لفظ فرعي بين هلالين: (كذا وصحتهـا فروع) والصحيح هو اللفـظ الاول ويشير الى مختصريه الاصلي والفرعي كما هو معلوم. وفي مصادر

هـذه الترجمة ذكر كتاب دوحة الناشر لابـن عسكر فسمـاه دوحـة النسرين خطـأ.

وفي صفحة (181) توقف الدكتور في شخصية الامـام النووي قائلا: (لم أجد لهذا الشيخ ذكراً فيما بين يـدي من المراجع) بعد أن أورد بعض الاسماء التي تحمل هـذه النسبـة. ومحيي الدين النـووي ممن لا يخفى أمـره، فهـو أحـد أئمة الشافعية وحـافظ الحديث وشارح صحيح مسلـم وصاحـب الاربعين حديثا النوويـة المشهورة.

هذا وهناك نقط تتعلق بفهـم النص لا نتفق فيها مع المحقق، ومنهـا في صفحـة (131) تعليقه على عبـارة من كلام ساقه المؤلف، تبيينا لما رواه اشهب عن مـالك في الهجرة مر البلد الذي يعمل فيـه بغير الحق. والعبارة هـي: «وهذا الا نمودج دليل على مـا رواه» والتعليق هو: «كذا في الاصل ويبدو أنه سقط بعد ذلك شيء.. والكلام تام لا سقوط فيه، وهو يعني أن الامثلة التي ذكرها في ذلـك الانمودج تدل على صحة ما رواه اشهب عن مالك.

وفي صفحة (152) اثناء الكلام على انه لا يسقط الهجرة عمن استولى العدو على معاقلهم وبلادهم الا العجز عنها بكل وجه، لا الوطن والمال، علق المحقق على الكلمتين المنفيتين بقوله: «كذا في الاصل - يعني نسخة الايسكوريال - وفي م يعني نسخة المعيار - الوطن والمال» يعني بعدم ذكر لا ولم ينتبه لالحاقها في الهامش، ثم قال: «والعبارة قلقة على اي حال»

وليس في العبارة قلق، فهي تعني أن التعلق بالوطن والمال لا يسقط الهجرة، وانما يسقطها العجز التام.

وفي ص (160) بعد ذكر حديثين في الهجرة وقول المؤلف: «وقد ثبتا في الحسان من المصنفات التي تدور عليها رحى الاسلام ولا معارض لها ولا ناسخ ولا مخصص، ولا غيرهما. ومقتضاهما لا مخالف لهما من المسلمين» علق المحقق على قوله ومقتضاهما بقوله: «اي ما يحمل معنى النسخ والتخصيص» وهذا التفسير غير صحيح، ولعل ما أوقعه فيه هو رجوع الضمير مثنى في قول المؤلف «لا مخالف لهما» وحقه ان يفرد فيقال: ومقتضاهما لا مخالف له.

وفي ص (165) اشار المؤلف الى ان مذهب الحنفية عدم حقن دم من لم يهاجر من المسلمين اي عدم لزوم الدية فيه، وانما فيه الكفارة على خلاف مذهب مالك والشافعي، قال: واحتجوا على ذلك بقوله تعالى (والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء، حتى يهاجروا) وقوله جل ذكره (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مومن فتحرير رقبة مومنة) ولم يذكر دية. فعلق المحقق على الاية الاولى بقوله: «ترك المؤلف بقية الاية لانها تهدم رأيه من أساسه، ونص الاية كاملا: (والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء، حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) ومعلوم ان الكلام في حقن الدم وعدمه والاستدلال لمذهب الحنفية، لا في النصر فليس عليه خلاف.

وفي ص (167) علق المحقق على قول المؤلف: «ويعتضد هذا الفرق» بقوله: «كذا والصواب الفريق» ولا معنى للفريق هنا والمؤلف يتكلم على الفرق بين مسألتين مما يتعلق بالمال.

وفي ص (175) علق المحقق على نص للمازري نقله المؤلف، وجاء فيه: «وقد امليت في هذا طرفا في شرح البرهان وذكرت طريقة ابي المعالي وطريقتي، لما تكلمنا فيما جرى بين الصحابة» فقال: «وقول المازري لما تكلمنا» يفهم منه أنه تناقش في موضوع ما وقع بين الصحابة مع أبي المعالى الجويني، والا لقال: لما تكلمت كما قال قبل ذلك: وذكرت، ثم راح يبرهن على سبق زمن الجويني لزمن المازري وعدم ثبوت رحلة هذا الاخير للمشرق الخ. ولا يلزم شيء مما فهمه من عبارة لما تكلمنا، فغاية الامر انه عبر بنون الجمع عوض تاء المفرد ولا زائد.

ونبهنا على هذه الهفوات اهتماما بهذا الكتاب القيم عسى ان يعيد المحقق النظر فيه عند اعادة طبعه، لا سيما وهو قد بذل فيه جهدا كبيراً مشكوراً ومذكوراً.

ومن أبحاث الصحيفة «النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف الاسلامية» للدكتور عبد الرحمن زكي وهو بحث طريف ونبه على قراءة هذه الاية التي وردت فيه هكذا: (ورد الله الذين كفروا لغيظهم ...) مما نقش على بعض السيوف بأن صواب القراءة بغيظهم بالباء. كما أن هذا البيت من شعر عنترة الذي كان منقوشا على احد السيوف وهو:

حكم سيوفك في رقاب العزل وإذا بليت بعار ذل فارحل

صوابه: حكم سيوفك في رقاب العذل وإذا نزلت بدار ذل فارحل

فإن كان النقش كذلك فالخطأ من الصانع والا فمن القراءة.

ومن أبحاث القسم الاسباني موضوع بعنوان : نشاط الدراسات الفلكية في الاندلس للدكتور مياس وهو من أفيد ما كتب في هذا الصدد وفيه انصاف كثير وقد قدم ملخصه في القسم العربي. ومنها موضوع : المطبخ الاندلسي المغربي خلال العصر الموحدي الذي قدم فيه الاستاذ ويسي مخطوطا فريدا في بابه عن الطعام وألوانه في الاندلس والمغرب على عهد الموحدين. واختتمه ببيان عن أنواع الاطعمة والحلوى والمربيات وغيرها الوارد ذكرها في المخطوط، وهي عدة مآت، مما يدلنا على ازدهار الحضارة في العصر الموحدي الذي يعد العصر الذهبي في تاريخ المغرب العربي.

ومع الاسف فإن هذا المخطوط مبتور الاول لا يعرف صاحبه. وبالجملة فإن هذه الصحيفة عامرة، وتدل على النشاط العظيم الذي يقوم به معهد الدراسات الاسلامية في مدريد.

تونس في مجمع اللغة العربية بالقاهرة[1]

سيدي الرئيس، سادتي سيداتي

تتكافأ البلاد العربية مجدا وشرفا، وتتعاطف احساسا وشعورا، وهي في النهضة كأفراس الرهان تستبق الى ما يعلى شأن العروبة ويرفع من قدرها الى ما كانت عليه في الماضي وأكثر، فنحن العرب وإن كنا من أصل واحد ولغة مشتركة، تؤلف بيننا هذه الضاد التي تصوغ فكرنا وتطلق ألسنتنا بما يزيد وحدتنا تماسكا، وعروتنا توثقا، الا أننا بحكم تباعد الديار واختلاف المناخ قد يتميز مغرب منا من مشرق بل قطر من قطر بما لا يعدو ما تتميز به بلدة من أخرى في القطر الواحد من بعض السمات والعلامات، ولكن ذلك ليس بمؤثر في العمق شيئاً، بل هو أحرى ان يكون مظهرا من مظاهر التكامل، وانعكاسا لجميع السجايا والاوصاف، ولو شئت لقلت اللغيات واللهجات، التي عرفت بها بعض القبائل والبطون من أجدادنا العرب القدماء. فما نشاهده من عادات واعراف

---

[1] القيت هذه الكلمة في حفل استقبال الاستاذ الشاذلي القليبي العضو التونسي الجديد بمجمع اللغة العربية بالقاهرة يوم الثلاثاء 27 من ذي الحجة عام 1390 ـ 22 يبراير 1971.

تختلف من بلد عربي لآخر، لعله أن يكون مما أثر عن هؤلاء القوم، أو اولئك، من العرب الذين نزلوا بهذا البلد او ذاك، ومثل هذا يقال فيما نسمعه من لفظ ونبر يختص بشعب عربي دون آخر. ولو تفرغنا لدراسة ذلك، ورده الى مصادره الاولى لوقفنا على الكثير المعجب من أصول شعوبنا العربية وخصائصها.

اولئك مثل الطبيب كل له شذى ومجموعه اذكى أريجا اذا شما

لهذا كان تمثيل البلاد العربية في مجمع اللغة بالقاهرة فكرة صائبة، وأمراً ضروريا، من اجل استكمال الوجود العربي واستيعاب العناصر المكونة للطاقة اللغوية في كل بلاد العرب، ومن أجل التعريف بجهود المجمع في سبيل النهوض باللغة العربية واحلالها المحل اللائق بها بين اللغات الحية، فإن هذه الجهود أو أكثرها يبقي مجهولا لدى ابناء العربية في وطنهم الكبير الممتد من الخليج الى المحيط، وقد يستطيع أن يعرف بها غير رسل هذه البلاد الذين يشاركون بما أوتوا من علم ومعرفة الى جانب اخوانهم في عاصمة الفكر العربي، القاهرة المعزية، في بناء ذلك الصرح العتيد، ويلمسون من كثب ما يقوم به المجمع والجمعيون من عمل عظيم في هذا السبيل، فيرجعون الى قومهم يتحدثون بما رأوا وما سمعوا، وينشرونه في الاوساط العلمية التي تستفيد منه الفائدة الجلى، وبذلك تحصل النتيجة المرغوبة ولا يبقى أحد يتساءل اين المجمع اللغوي وماذا عمل؟! وهذا الى الاجماع من ممثلي البلاد العربية على مقررات المجمع واوضاعه، ذلك الاجماع الذي يقطع الشغب ويرد الدعوى بتعدد المصطلحات العربية واختلافها، وهي دعوى

طالما رددها بعض الكتاب وركز فيها المتنطعون هجومهم على المجمع وعلى اللغة العربية ذاتها، فمن المسلم به أنه بعد ما ينعقد مؤتمر المجمع السنوي وتحضره النخبة المعنية بالمباحث اللغوية، وتصفق كلها على ما يوضع بين أيديها من مصطلحات وقرارات، تصبح تلك المصطلحات والقرارات هي المعمول بها والمعول عليها بهذا الاجماع، ويصير ما عداها لاغياً وغير مقبول.

وإننا اذ نتوصل من امانة المجمع بما نتوصل به من اعمال المجلس لابداء النظر فيها، واذ نجتمع هنا كل سنة في المؤتمر، انما يحدونا هذا التوافق، والعمل ضمن خطة موحدة لارساء قواعد لغتنا، وتصفية مواردها العذبة من الشوائب والكدورات، فياتي كل واحد منا بخير ما عنده، ولا نثبت اننا وطن واحد تسكنه امة واحدة وحسب، ولكننا فوق ذلك، نعمل ما عمله اجدادنا، في أسواق عكاظ، ومجنة وذي المجاز، وفي موسم الحج بخاصة، فنختار من الالفاظ اعذبها، ومن الاساليب اعجبها، ونخرج بحصيلة من الكلم تؤدي ما نحن في حاجة اليه من أغراض ومقاصد، من غير ان تبعد بنا عن بيان يعرب وقحطان، وبلاغة السنة والقرآن.

واليوم هذه أرض الكنانة، وهي حرم آمن للعلم، تجبى اليه ثمرات العقول من كل الافاق، تمضي على سنتها المحمودة، فتستقبل في حظيرة مجمعها الموقر عضوا جديدا من بلد عربي عريق، هو القطر التونسي الشقيق، خلفا لزميل كريم، ومجمعي عظيم، خلا كرسيه باستيثار رحمة الله به.

واذا ذكرنا تونس فإننا نذكر القيروان وحضارتها، وعلومها وآدابها في وقت كانت فيه ثالثة عواصم العالم العربي والاسلامي، بعد بغداد وقرطبة، ونذكر دولة الاغالبة وعظمتها، وفتوحاتها التي جعلت من غرب البحر الابيض المتوسط بحيرة عربية خالصة، ناهيكم بفتح جزيرة صقلية وما نشأ فيها للعرب من مدنية وسلطان نوه بهما شاعر الاسلام محمد إقبال حين قال:

وقد مر بهذه الجزيرة: «السلام عليك أيتها الارض التي تحتضنين حضارة الاسلام».

وحسبنا أن نذكر ابن رشيق وابن شرف من أبناء هذه الارض الطيبة، لنقدر ما ساهمت به في الدراسات اللغوية والادبية التي نعنى بها في هذا المجمع، فابن رشيق صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، الذي يعد من اوائل الكتب المنهجية في هذا الفن. وابن شرف هو الشاعر الذي عبر عن الزيف السياسي المتمثل في حكومات دول الطوائف في الاندلس، بما صار مضرب المثل على لسان كل عربي حين قال:

مما يزهدني في أرض اندلس	اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

فإذا انتقلنا من ميدان الادب واللغة، الى ميدان العلم والفلسفة والاجتماع، وذكرنا ابن خلدون من نوابغ تونس وعباقرتها، فإننا نذكر ما يملأ النفس عظمة وفخرا، ويطاول الزمان خلودا وذكرا، انه المفكر العربي الاصيل السباق

الى وضع علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، والذي احصى علوم عصره، وقام بدراسة مقارنة بين حضارة الاسلام وغيرها من الحضارات، وتنبأ بسقوط دولة العرب في الاندلس وحلل النفسية العربية وعناصر تكوين المجتمع العربي، ووصف داءه ودواءه وبقي إلى ءاخر ايام حياته، يعيش مع احداث عصره، ويندمج في مختلف اوساط امته، مسجلا تجاربه او ملاحظاته التي بهر بها الدراسين والعلماء من الغربيين قبل الشرقيين. وبذلك صح ان يعتبر احد الافذاذ من رجال الفكر العلمي الانساني في العالم أجمع.

اما اذا اردنا ان نستعرض ما اعطته تونس في مجال الفقه والدراسات الاسلامية، فان ذلك شيء يطول، ولكن يكفي ان نبدأ بما انجزه سحنون من عمل ضخم في هذا الصدد، وهو تأليفه للكتاب الذائع الصيت، الذي يعد قمة كتب الفقه في المذهب المالكي، والمرجع الاول لمشترعي المالكية في العالم الاسلامي، اعني كتاب المدونة الكبرى، وان نختم بمختصر ابن عرفة في المادة نفسها، وهو الكتاب الذي استوعب باوجز عبارة مسائل المدونة، وما قام حولها من الدراسات، وتميز بتعاريفه الدقيقة وحدوه المنطفية التي حيرت العلماء ووضعت عليها لذلك الشروح والتعاليق.

ان ذكر هذين العلمين الشهيرين سحنون وابن عرفة من رجال تونس النابغين في العلوم الاسلامية هو من باب الاكتفاء بالعنوان عن قراءة الكتابة، والا فان من انجبتهم

البلاد التونسية في هـذا الباب، قبل وبعد، هو مما يخطيه الحصر، وأكثرهم ان لم أقل كلهم من ذوي الوزن الثقيل.

هـذا في الماضي، وفي الحاضر، هل أذكر جهاد تونس وتضحياتها الجسيمة في سبيل الاستقلال وانتزاع حريتها من يد المستعمر الغاصب، وهل أذكر كتابها وصحافييها اللامعين الذين ناصروا القضية العربية والاسلامية وجهاد الشعوب الشقيقة في المغرب والمشرق ولم يقصروا اهتمامهم قط على قضية بلادهم برغم ما كانوا يتعرضون له من امتحان واضطهاد؟ وهل اذكر علماءها الكبار الذين ادركنا بعضهم احياء، مثل الشيخ سالم ابو حاجب الذي الحق الاحفاد بالاجداد، والشيخ المكي ابن عزوز الذي عرفه المغرب والمشرق بسعة العلم والاطلاع اذ عاش ردحا من عمره في الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية؟ وهل اذكر اميـر شعرائها الصديق النبيل الشاذلي خزندار ونابغتها الفذ ابا القاسم الشابى؟ وهـل اذكر الشيخ الخضر حسين الذي ولى مشيخة الازهر، وكان مثال العالم المتخلق الكريم، وفقيدينا العزيزين حسن حسني عبد الوهاب والفاضل ابن عاشور؟ انها سلسلة طويلة كثيرة الحلقات، والوقت لا يسمح بتتبع افرادها وذكر اسمائهم، فكيف بالكلام عليهم والتعريف بهم!.. والمراد ان اقول، ان هذه هي تونس التي تلج مجمع اللغة العربية اليوم بممثلها الجديد من بابه الواسع، فما ذا عن هذا الزميل الفاضل.

ان الاستاذ القليبي يحمل اسم الشاذلي، وتلك لمحة اخرى من لمحات الحياة الروحية لشعب تونس الكريم، لا سيما اذا

عرفنا ان هذا الاسم يشيع بين التونسيين كثيرا، وقضية ذلك ان الشاذلية كان لهـا انتشار كثير في تونس، ومريدون صادقون متمسكون بحبلهـا متفانون في حبهـا، حتى أنهم يسمون أبناءهم بوصفها الذي يفيد الانتماء اليها منذ الولادة، أملا في سلوك طريقها الوارية والنشوء على تربيتها الحسنة. والشاذلية كما لا يخفى هي مذهب من مذاهب التصوف، أنشأه الشيخ ابـو الحسن الشاذلي الغماري المغربي، تلميـذ الشيخ عبـد السلام بن مشيش صاحب الصلاة المشيشية المعروفـة، وبناه على طريقة الجنيد امام الصوفية من أهل السنة، وطهره من بـدع المتصوفة المدعين وضلالاتهم التي تجافي الدين، وكان قد مر بتونس عند رحلته الى المشرق، فأخذ الناس عنه وانتشر مذهبه هناك وبلغ تأثيره في المجتمع التونسي ما رأينا من الاخلاص له والتعلق به، لحد تسمية الاباء ابناءهم في القرن العشرين بما يرجى من الاتصاف بـه.

وليلا يكون كلامي هذا من باب الشعر والخيال اذكر بعض الوقائع التاريخية التي تصور لنـا المجتمع التونسي كما وصفناه، وهي مما ذكره احد علمائها الاثبات الثقات. وليس مما رواه الاخباريون والقصاص، وذلك ما جاء في شرح العلامة الابي على صحيح مسلم وهو تلميذ ابن عرفة سابق الذكر. فقد قال: كان قضاء تونس في أيام الدولة الموحدية، لا يولاه الا قضاة من مراكش، فاتفق مرة أن قدم اليها قاض، فجلس مجلس الحكم، فبقى اياما لا ياتيه احد، فظن أن القوم لم يرضوا بـه، ثم قدم اليه يوما خصمان من أهل سوق الجبة، فقال

احدهما: اصلحك الله، ان هذا شريكي، وقد باع جبة من أعرابي، وأنا لا استحل مال الاعراب. فعلم القاضي حينئذ أن عدم اتيان الخصوم اليه، انما هو لتناصفهم ومراعاتهم جانب الله. ويعني بالاعراب بني هلال الذين كانوا ثائرين على السلطة الشرعية فأموالهم لم تكن تخلو من شبهة. وهذه واقعة اخرى مما رواه الابى أيضا، فقال: وسقط دينار من احد المارة بطريق العطارين، فبقى ملقى مدة، لا يرفعه احد، ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس اليوم دخل بلدنا غريب.

تلك هي بعض الملامح من صوفية المجتمع التونسي الذي حقق ما حلم به الفلاسفة قديما من المدينة الفاضلة، وذلك هو بعض ما يوحى به اسم الشاذلي لكل تونسي فاضل حين يسمي ابنه به، كما فعل والد زميلنا الكريم.

وقد ولد الاستاذ الشاذلي القليبي في عاصمة تونس بتاريخ 6 شتنبر سنة 1925 وزاول تعليمه الابتدائي والثانوي بالمدرسة الصادقية، وبعد التخرج منها التحق بجامعة السربون في باريس، حيث واصل دراسته العالية، وحصل على شهادة الاجازة في الاداب العربية سنة 1948 ثم على شهادة الاجازة في الفلسفة سنة 1949 ثم على شهادة التبريز في الاداب واللغة العربية سنة 1950 ورجع الى وطنه تونس فاشتغل بالتعليم في السلك الثانوي، وبالقاء بعض الدروس في معهد الدراسات العليا الذي كان آنذاك يعد فرعاً لجامعة باريس في تونس.

وفي سنة 1957 التحق نهائيا بالتعليم العالي فكان من الاساتذة المؤسسين لمدرسة المعلمين العليا، وفي سنة 1959

دعي للاضطلاع بالادارة العامـة للاذاعة والتلفيزيون وفي سنة 1961 عين وزيراً للشؤون الثقافية والاخبـار، وبقي في هذا المنصب الى منتصف سنة 1970.

وهو الان نائب بمجلس الامة ورئيس لبدية مدينة قرطاج، وللمركز الثقافي الدولي بالحمامات.

انها وظائف هامة شغلها ويشغلها الاستاذ القليبي منذ انتهاء تحصيله، ومسؤوليات كبيرة، تحملها بجد وإخلاص، اهتماماً بنشر العلم وتثقيف العقول تارة، وقياما بواجبه الوطني في تسيير أجهزة الدولة تارة اخرى، فهو رجل علم وعمل، وتفكير وتدبير، برهن على عمله بدروسه التي استفاد منها العديد من التلامذة والطلاب، وأسندت اليه الدولة مهام جسيمة، فأظهر من الكفاءة والمقدرة في الاضطلاع بها ما جعلها تنقله من مهم الى مهم، ثقة به واعتمادا عليه، وهكذا نجح في الميدانين الثقافي والاداري وكان من خاصة من قيل فيهم :

اذا ايقظتك حروب العدا   فنبه لها عمـراً ثـم نـم

وللاستاذ الشاذلي القليبي مجـالات أخرى من النشاط الاجتماعي والثقافي علاوة على ما كان يتقلده من وظائف ومسؤوليات، فقد انتبه منذ عودته من فرنسا سنة 1950 الى الحركة العمالية التي أصبح فيما بعد من قادتها المرموقين. كما شارك في تحرير جريدة الصباح اليومية منذ بروزها الى الوجود، واشرف على ادارة جريدة صوت العمل التي يصدرها الاتحاد العام التونسي للشغل، ابتداء من سنة 1954 الى سنة

1956. وكثيرا ما حرر المقالات الافتتاحية بجريدة لا كسيون الفرنسية التي تصدر اليوم باسم جون افريك .. وكان من أكبر المشاركين في تحرير مجلة «النــدوة» من اول ظهورها سنة 1953، وتولى الاشراف علــى ادارتها وتحريرهــا سنتي 54 و 1955. وهذا النشاط الحافل في العمل الصحفي باللسانين العربي والفرنسي لا بد أن تكون له حصيلة أدبية ذات نزعة انسانية، ولا سيما ما اختص منه بالنضال العمالي، وهو نضال قديم في تونس خص بالتأليف، فلو جمع ما كتبه الاستاذ فيه لتهيأ لنا ان نطلع على أفكاره في هذا الموضوع الذي يمت للحركات الليبرالية في العالم بسبب وثيق.

وللاستاذ القليبي مشروعات تآليف ادبية لم تدع له اهتماماته الكثيرة والمتنوعة من الوقت ما يمكنه من تحقيقها وإخراجها الى حيز الوجود . . وقد نشر لــه بحث في مشكلة فلسطين بعنوان «العرب أمام قضية فلسطين»، ولــه كتاب قيد الطبع يحمل اسم «ءافاق ومسالك».

ويعتبر زميلنا الجديد رائداً للثقافة التونسية الحديثة، فهو اول من خطط لها وأوضح معالمها، وأول تونسي اشرف على جهاز حكومي يضم جميع اختصاصاتها، وهو وزارة الشؤون الثقافية التي بقى فيها تسع سنوات متوالية يرسى قواعدها في مختلف المجالات. وإليه يرجع الفضل في احياء التراث الفكري والفني والتاريخي بتونس.

وقد عرف له رئيس الجمهورية التونسية هذه المزية فقلده الوشاح الاكبر من وسامى الاستقلال والجمهورية، كما عرفت

مزاياه كثير من الدول الشقيقة والصديقة، وفي طليعتها الجمهورية العربية المتحدة التي قلدته ايضاً الوشاح الاكبر من وسام الجمهورية المصرية.

واخيرا اختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1970 عضوا عاملا ممثلا لتونس، خلفا للعلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب..

ايها السادة: هذا هو الزميل الجديد التي شرفني المجمع بأن اكون نائبا عنه في استقباله وأن اقدمه اليكم بحكم أننا معا ننتمي الي المغرب العربي. وقد رأيتم انه شخصية لامعة وأنه جدير بهذا الشرف الذي أولاه اياه مجمع الخالدين، فهو يجر من ورائه تاريخا حافلا بالمجد والعظمة، وماضياً زاهرا بالعلم والحضارة لبلد يأتي في الطليعة من بلاد وطننا العربي الكبير، هو تونس الخضراء. وهو يمثل الجيل الصاعد من أبناء الجمهورية التونسية الذي ناضل في غير ما ميدان، من اجل بناء الاستقلال والمحافظة على الذاتية العربية لبلده، بما اعلى للثقافة القومية من شأن، وما أحيى من تراث الفكر العربي الذي اخنى عليه الاهمال والنسيان.

والمجمع إذ يفتح أبوابه في وجوه العاملين المجدين الذين تتدفق في عروقهم وقلوبهم دماء الشباب الحارة، انما يريد من ذلك ان يعزز جهود الشيوخ الراسخين، ويزاوج بين الحكمة والمقدرة. وبذلك فإن زميلنا الجديد، وان كان يخلف علما من أعلام الفكر، وطودا من اطواد المعرفة، وعضوا قديما من اعضاء المجمع ساير ركبه وشارك في أعماله من لدن

انشائه وتكوينه، فإني مستبشر به ومتوسم فيه انه سيكون خير خلف لخير سلف، لاني لا ارى قصر الفضائل على المتقدمين وحتمية تفوق السابقين على اللاحقين، ولا سيما في مجال العلم والادب. ويرحم الله ابن مالك الذي قال في طالعة كتابه التسهيل: «واذا كانت العلوم منحا الاهية ومواهب اختصاصية، فغير مستغرب ان يدخر منها للمتأخرين ما عسر نيله على كثير من المتقدمين».. والامر على كل حال يتعلق بالجد والاجتهاد والمثابرة والمصابرة كما قال ابن البناء السرقسطي في المباحث الاصلية.

ولم تزل كل نفوس الاحيا علامة دراكة للاشيا
وانما تحجبها الابدان والانفس النزغ والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده اظهر للعاجز خرق العاده

والاستاذ القليبي قد عرفنا من جهاده الدائب وكفاحه المستمر ما يجعلنا نومن بأنه سيملأ الفراغ الذي تركه سلفه المرحوم في العمل المجمعي، وأنه سيكون منه للمجمع خلف تقر به الاعين.

واني أقدم له اصدق التهاني بعضوية المجمع واتمنى له النجاح التام في مهمته الجديدة وذلك بإسمي وباسمكم جميعا، وأهدي، كذلك، الى تونس العزيزة تحيات المجمعيين وعواطفهم السامية. والسلام عليكم ورحمة الله.

الدرهم والدينار في الادب العربي

لعل الدرهم والدينار أكثر أسماء العملة دورانا على الالسنة في اللغة العربية، بل لعلهما أقدم هذه الاسماء استعمالا فيها، فقد جاء ذكرهما في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم والحديث الشريف وهلم جرا.

وقد بلغ من كثرة استعمالها أنهما صارا يطلقان على المال والعملة من أي صنف كانت ـ حتى ولو لم تكن تحمل اسم واحد منهما، فيقال: فلان لا يملك درهما ولا دينارا، والحالة أن ما يتعامل به الناس جنيهات أو قروش أو غيرهما.

ولم يزل هذان الاسمان متداولين حتى في عصرنا، ففي المغرب يطلق الدرهم على الوحدة الاساسية للعملة الوطنية، وفي الجزائر يطلق الدينار على هذه الوحدة، في حين أنه يطلق في تونس على أكبر وحدة من العملة الوطنية التي تقابل الجنيه في مصر، وكذلك الامر في العراق والكويت وليبيا. بل أننا نجد اسم الدينار يطلق على العملة الوطنية في بلاد غير عربية ولا شرقية وهي يوغوسلافيا. وهذا منتهى الشهرة والانتشار. ولا شك أنهم أخذوه عن العربية والبلاد الشرقية التي تأثروا بها كثيراً.

اسمـان معربـان

على أن هذين الاسمين في أصلها غير عربيين، وإنما أخذا من الفارسية، ففي كتاب المعرب للجواليقي: (الدينار فارسي معرب، وأصله دنار وهو وإن كان معربا فليس تعرف له العرب اسما غير الدينار، فقد صار كالعربي) هذا قول الجواليقي، وصحح الاب انستاس الكرملي أن أصله رومي.

وفي كتاب المعرب أيضا: (ودرهم معرب، وقد تكلمت به العرب اذ لم يعرفوا غيره) فلم يذكر أصله، وعند الاب انستاس أن أصله دراخم من اليونانية.

وعلى ما رواه البلاذري في كتاب النقود كانت دنانير الروم ودراهم الفرس ترد على أهل مكة في الجاهلية، فكانوا لا يتعاملون بها الا على أنها تبر، يعني قطعاً من عين المعدن، غير مضروبة. ولكن المثقال كان وزنا معروفا عندهم، فكانوا يزنونها به وبقي العمل على ذلك في صدر الاسلام حتى ضرب عبد الملك بن مروان الدراهم والدنانير العربية.

الدينار ذهب والدرهم فضة

والمعروف أن الدينار كان من الذهب والدرهم من الفضة، ولذلك لما قدرت الزكاة في العين، كان النصاب الذي تجب فيه من الذهب عشرين دينارا، ومن الفضة مائتى دراهم. والواجب فيهما معا ربع العشر.

ولم تزل الشعراء تشبه الوجوه الجميلة المشرقة بالدنانير لانها ذهب خالص براق. قال الشاعر في صبيان النصارى :

كأن دنانيراً على قسماتهم وان كان قد شف الوجوه لقاء

ومن شواهد البيان :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الاكف عنم

وبين شاعر الفرق بين الدينار والدرهم في التشبيه أتم بيان حين قال :

ويظلم وجه الارض في أعين الورى بلا شمس دينار ولا بدر درهم

فجعل الدينار شبيها بالشمس والدرهم شبيها بالبدر لخبو نوره وكونه من الفضة.

ومن أقدم الشعر الذي ورد فيه ذكر الدرهم فيما أحفظ قول عنترة في معلقته يصف روضة :

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم

ومنه قول أحد الاعراب :

فكيف لنا بالشرب ان لم يكن لنا دراهم عند الحانوي ولا نقد

وهو من شواهد النحو، ونسب للفرزدق، ولكن الفرزدق لم تبلغ به الصعلكة الى الحد الذي لا يجد فيه ما يدفع به ثمن الشراب ويذكرني هذا البيت بقول أحد الشعراء المغاربة:

بدكانة السفاج لاحت كواكب فيا ليتها كانت مغاربها فمي
وقد زعموا أن الدرهم مهرها فما حيلتي والله قد قل درهمي

والسفاج صانع الاسفنج وهو نوع من الفطائر، هش مستدير يقلى في الزيت ويتناول في الفطور صباحا.

في القرآن والحديث

وجاء ذكر الدرهم في القرآن الكريم بصيغة الجمع في قوله تعالى في سورة يوسف: « وشروه، بثمن بخس دراهم معدودة » أما الدينار فذكر بلفظ المفرد في سورة آل عمران، في قوله تعالى: «ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك، ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» والاية فيها انصاف عظيم لاهل الكتاب، اذ جعلتهم على قسمين، أمين، وخائن، وهذا يكاد يكون طبيعيا في كل الامم، لكنها انكرت عليهم اعتقادهم حلية الخيانة في حق العرب، وهم الاميون، في الاية، وحكمت بأن ذلك كذب وبهتان، فان الخيانة حرام في الملل كلها، وفي حق الناس كلهم.

وأما في الحديث الشريف فقد ورد ذكرهما كثيرا، ومن ذلك قوله عليه السلام: (الدينار بالدينار لا فضل بينهما، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، فمن كانت له حاجة بورق (فضة) فليصرفها بذهب، ومن كانت له حاجة بذهب فليصرفها بالورق، والصرف ها، وها) أي يدا بيد.

ومنه قوله (ص) تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم وعبد الخميصة (1). ان أعطى رضي، وان لم يعط سخط، تعس وانتكس، واذا شيك (2) فلا انتقش،، وهذا دعاء على من انقطع للدنيا وباع نفسه للمادة، لا يرى للحياة غاية غير الزينة وجمع الحطام. ولقد أبلغ الحديث في ذم من كانت هذه حاله، حين عبر عنه بعبد الدينار والدرهم، فجعله بحيث يتعبدانه ويتحكمان فيه، بدل أن يكون هو المتحكم فيهما والمستعبد لهما

ومما قيل في هذا المعنى شعرا:

النار آخر دينار نطقت به والهم آخر هذا الدرهم الجاري
والمرء بينهما ما لم يكن ورعا معذب القلب بين الهم والنار

وقيل في المتظاهرين بالصلاح وهم من عبيد الدينار والدرهم:

أظهروا للناس نسكا وعلى الدينار داروا
وله صلوا وصاموا وله حجوا وزاروا
لو رأوه في الثريا ولهم ريش لطاروا

المقامة الدينارية

خصص الحريرى احدى مقاماته، وهي الثالثة، بمدح الدينار وذمه، وسماها لذلك بالمقامة الدينارية، فمما قاله في مدحه:

1) الخميصة ثوب من خز أو صوف معلم.
2) اي اذا شاكته شوكة فلا قدر على انتقاشها اي اخراجها بالمنقاش.

أكرم به أصفر راقت صفرته ... جواب آفاق ترامت سفرته
به يصول من حوته صرته ... كم آمر به استتبت امرته
وجيش هم هزمته كرته ... وبدر تم انزلته بدرته
لولا التقى لقلت جلت قدرته

ومما قاله في ذمه:

تباله من خادع مماذق ... أصفر ذي وجهين كالمنافق
لولاه لم تقطع يد لسارق ... ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز باخل من طارق ... وشر ما فيه من الخلائق
أن ليس يغنى عنك في المضايق ... الا اذا فر فرار الآبق

ومن اسير الشعر في مدح الدراهم قول بعضهم:

ان الدراهم في المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن اراد فصاحة ... وهي السلاح لمن أراد قتالا

الرسول الحكيم

وملح أبو بكر الطرطوشي في قوله:

اذا كنت في حاجة مرسلا ... وأنت بانجازها مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم

وقد ركبه على بيت من قطعة لعبد الله بن جعفر يقول فيها:

اذا كنت في حاجة مرسلا ... فارسل حكيما ولا توصه
وان باب امر عليك التوى ... فشاور لبيبا ولا تعصه

الـى آخـرهـا.

ومن هذا الباب ما كتب به أحد الظرفاء الى معشوقة له:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى اليك؟ فإن الحب أقصانى

فـردت عليـــــه:

إجعل شفيعك منقوشا تدل به ان الدراهم تدني كل انسان

لا يساوي نصـف درهـم

ومن قول أحد الادباء في قيمة المال والاعتداد بـه:

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة وحكمة لقمان وزهد ابن ادهم
اذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس فليس يساوي في الورى نصف درهم

مصابيـــــح الدنانيـــــر

ومن حسن الوصف وبديع التشبيه قول عبد المهيمن الحضرمي
وانما الناس امثال الفراش فهم يلفون حيث مصابيح الدنانير

امثال وحكم

ويجرى لفظ الدينار والدرهـم في امثـال وحكم تـدور على ألسنة الناس مثل قولهم: ادخر درهمك الابيض ليومك الاسود وقولهم درهم وقاية خير من قنطار علاج، وقولهـم: الدراهـم مـراهم، وقولهم: الدين يسود الخدين ولو درهمين، وقولهم: الدينار القصير يسوى دراهم كثيرة، وقولهم الحمد لله الذي ابدل درهمنا بدينار، ولهذا المثل حكاية طريفة، وهي ان هندا

بنت النعمان كانت ذات حسن وجمال ... تحت الحجاج فكرهته وسمعها تنشد:

وما هند الا مهرة عربية   سلالة أفراس تحللها نغل

فان ولدت مهرا فلله درها   وان يك اقراف فما أنجب الفحل

فطلقها وسمع بها عبد الملك بن مروان فخطبها، فاشترطت عليه أن يقود محملها الحجاج، فأرسل اليه عبد الملك يأمره بذلك، فلما كانت في الطريق رمت من محملها دينارا الى الارض، وقالت يا حمال سقط منا درهم فارفعه الينا، فنظر الحجاج فلم ير الا دينارا فقال بل دينار، فقالت: الحمد لله الذي أبدل درهمنا بدينار؟»

حكاية أخرى

ويحكى أن أحدهم دخل مطعما فأعطى صاحبه دينارا وقال له اني جائع واريد أن آكل حتى أشبع، فرحب به صاحب المطعم وقام على خدمته، وقدم له أحسن ما عنده من أصناف الطعام، فازدردها بأسرع ما يكون، فقدم له دفعة ثانية وثالثة وهو لا يزداد الا نهما، فجاءه بقلة ماء وقال له ياسيدي هذه قلة ماء بارد، اذا شئت أن تشرب، فقال له أنا عادتي لا أشرب الا في نصف الاكل. فقال له اعمل معروف، خذ دينارك وربنا يكفينا شرك؟»

لا يصرفه الا ليستعيده بهذه الطريقة أو بأخرى، الشاعر الذى يقــول :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق

والبيت من شواهد المعاني .

صاحب مائتى درهم ملك

وأخيرا فقد غبر زمـان كان من يملـك فيـه مائتي درهم يعد نفسه ملكا، وذلك حسب هـذا الرجز الذى أنشده صاحب التكملة:

لو أن عندى مائتى درهام(1)   لابتعت دارا في بني حرام
وعشت عيش الملك الهمام   وسرت في الارض بلا خاتم(2)

وهو يدل أيضا على القوة الشرائية التي كانت للدراهم حينذاك بحيث يشتري دارا منعوتـة ويفضل لـه من مائتى درهم ما يعيش بـه عيشة الملوك غيـر المتوجين أو الذين لا ينقصهم الا الخاتم على حد تعبير هذا الراجز .

ونكتفي بهذه النماذج فـي الموضوع الذي لــو تتبعناه لطال جدا، على أنا لم نثبت منه الا ما استحضرناه مع اغفال لغير قليل من النظائر خشية الاملال.

1) الدرهام لغـة في الدرهم والخاتام لغـة فـي الخاتم.

قصة بحث صغير

القيت في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1962 بحثا بعنوان (لما به والفاظ اخرى) وكان هذا التعبير مربى في نص حكاية أوردها المؤرخ المراكشي في كتابه المعجب يتعلق بيحيى ابن الصحراوية صهر ابي جعفر بن عطية وزير عبد المومن، ونص المراد منها «فلما مرض وأظهر انه لما به» وذلك حسب طبعة القاهرة العادية وقد توقفت فيه. ولما نقلت الحكاية في ترجمة ابن عطية كتبت عليه «كذا»

ونشر الاستاذ محمد الفاسي المعجب محققا مقابلا على طبعة لندن، فتوقف أيضا في ذلك التعبير وكتب عليه «كذا»

ثم نشر المعجب بعناية الاستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ولا شك أنهما توقفا في ذلك التعبير. ولكنهما صححاه بما ظهر لهما فجعلاه هكذا «فتمارض وأظهر ان ألما به».

وبعد مدة أنشدت ابيات علي (ض) التي يقول فيها:

اذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيب

الى آخرها وهي من أبيات الفرج بعد الشدة، فأثار انتباهي التعبير نفسه، ولما تأملته وجدته غيره وإن أشبهه في اللفظ. ولكني تفاءلت بمضمون الابيات وقلت لابد أن تحل مشكلتها.

وقرأت بعد ذلك في كتاب الشعر والشعراء في طبعته المحققة بعناية العلامة احمد شاكر فمر بي التعبير في ترجمة يزيد بن مفرغ الحميري الشاعر، وكان عبيد الله بن زياد قد [illegible] فقيل له [illegible] ولم يعلق عليه المحقق بشيء ولكنه ضبطه بكسر اللام وتخفيف الميم. فتحقق عندي أنه تعبير صحيح وأنه عبارة مأثورة تدل على [illegible] الشخص الموصوف به [illegible] بنفسه [illegible]

ثم وقفت عليه في أبيات للشاعر [illegible] أبي الحسن بن زنباع يخاطب [illegible] وهو في هذا البيت منها:

لهبت به للقول وهو (ألما به) [illegible] قلبي، ولم يسعده نطق ولا فم

وقد أدرجت هذه الشواهد كلها في البحث المذكور، ولما ألقيته بمؤتمر المجمع أحيل على لجنة الأصول التي أقرته ووافقت على المعنى الذي أعطيته له من دون توجيه ولا تخريج.

ذلك أنني بعد تقرير معناه حاولت توجيهه وتخريجه عربية، كما ان الاستاذ الشيخ محمد علي النجار رحمه الله، وهو من أعضاء المجمع في العلوم العربية، حاول [illegible]

ذلك، ولكن اللجنة لم تر ضرورة لهذا التوجيه والتخريج واكتفت بما قلت من انه عبارة مأثورة الخ.

وبعد إلقائي لهذا البحث اعلمنى الاستاذ عبد الستار فراج من محرري المجمع ومحقق كتاب الاغاني انه مر بهذا التعبير في الاغاني ووعدني باحضار النص الذي وقف عليه فيه. ثم جاءني ببيتين من شعر لابي الغمر الطهوى يرثى فيه الحسن بن زيد يقول فيهما:

وسألت عنه فقيل بات (لما به) قلت الندى لا شك بات (لما به)

فشكرته على ذلك وألحقت البيتين بالبحث.

وبعد رجوعنا من مؤتمر المجمع كتب لي الاستاذ الفاضل بن عاشور من تونس، إنه وقف على هذا التعبير في كلام لعلي بن ابى طالب بنهج البلاغة يصف مريضا ميؤوسا منه جاء فيه: فقائل (هو لما به)، الخ كما انه وقف عليه في شعر لابي نواس يقول فيه:

أسقم اسمى ريح فيه فأظن اسمى (لما به)

فكتبت اليه أشكره وألحقت شاهديه أيضا بالبحث.

ونشر البحث بهذه الزيادات في مجلة تطوان التي يشرف عليها الاستاذ محمد بن تاويت. وكان نشر قبل بمجلة المجمع اللغوي من دون زيادة مع القرار الذى اعتمدت لجنة الاصول به هذا التعبير.

وتلقيت بعد ذلك من المجمع كلمة للزميل الاستاذ علي حسن الفقيه من ليبيا يقول فيها انه وقف في ابن خلكان على ان ابيات:

اذا اشتملت على الياس القلوب الخ التي أوردتها في بحثي منسوبة الى علي بن أبي طالب، هي لابن السكيت، وتطرق لما قيل في الشعر المنسوب لعلي، ونوه بتثبت ابن خلكان وأنه ثقة فيما يقول.

وقد رددت على هذه الكلمة وأثبت بطرق مختلفة قول علي للشعر دون البيتين المشهورين اللذين قيل أنه لم يثبت عنه غيرهما، كما أثبت نسبة الابيات المذكورة لعلي بطريق الرواية عن ابن النجار وإبن ابي الدنيا وغيرهما.

ونشرت الكلمة والرد عليها في عدد مجلة المجمع التالي.

وكان الاستاذ أمين الخولي رحمه الله كتب تقريرا بصفته عضوا في لجنة الاصول وتعرض فيه للتخريج الذي رأيته لذلك التعبير وكذا تعرض لتخريج الشيخ علي النجار، واورد تخريجا آخر له، فكتبت ردا عليه وبينت ضعف تخريجه، ونشر ذلك أيضا بمجلة المجمع.

ومما يتعلق بتعبير لما به أنه وقعت مناقشة في مؤتمر المجمع حول البحوث التي يقدمها الاعضاء هل تقتصر على الموضوعات اللغوية أو تبقى عامة، وهل يقترحها المجمع أو يكون للاعضاء الحرية في تناول ما شاءوا من أبحاث، وانقسم الاعضاء الى فئتين: وكان في الفئة المؤيدة لحرية

الاعضاء الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله ومن جملة ما قال: اننا اذا قيدنا حرية الاعضاء فيما يتناولونه من موضوعات، لم يتهيأ لنا أن نستمع الى بحث طريف مثل بحث الاستاذ عبد الله كنون في عبارة لما به.



هذه قصة بحث لما به التي لخصها الاستاذ محمد بن تاويت فيما كتبه بالعدد 51 من العلم الاسبوعي على كتاب الهفوات النادرة من غير اشارة ولو هامشية الى مصدرها. ولكن هذا لا يهم، وانما المهم انه استشهد بها في غير محلها ثم قال عن هذه العبارة انها لم تعمر الا نحو ستمائة سنة، وانها تبتديء بقول علي رضي الله عنه والحكم بهذه الصورة القطعية غريب فقد وقفت عليها بعد هذا كله في حديث شريف عند ابن ابي حاتم في كتاب العلل وهو حديث عن ابن عمر ان النبي (ص) عاد امرأة من خثعم فقال لها كيف تجدينك؟ قالت: ما اراني الا (لما بي) الخ.

وفي حديث آخر عند البخاري في الادب المفرد عن زيد بن أرقم قال: رمدت عيني فعادني النبي (ص) ثم قال يا زيد: لو أن عينك (لما بها) كيف تصنع؟ الحديث، فالحديثان دليل على أنها لم تبتديء بعلي ،، ولنا أن نقول انها لا تبتديء بحديث النبى (ص) أيضا، لان العلماء اشاروا الى الكلمات التي لم تسمع الا منه عليه السلام، ولم يذكروا هذه منها، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، فلا شك أن اطلاعنا

المحدود هو المسؤول عن جهل أول استعمال لها، وبالضرورة اذا لم يثبت في أوليتها شيء، فإن استمرار استعمالها أولى بعدم الثبوت، وقد وقفت على بعض الاشعار الاخرى التي استعملت فيها من غير ما ذكرت، كما ان الاستاذ ابن تاويت ذكر امثلة لها جاءت في كلام الخيزران وشعر ابن دراج وكم بقي مما لم نطلع عليه في هذا الباب.

أنـــغـــام

الانسة طرينا (1)

أنت شغوف بالشعر لدرجة اني لم أر من يجاريك من الرجال في هذا الشغف، بله النساء.

وانت شغوف بالشعر المغربي أكثر من أبناء المغرب، فلم أر من يتساءل عنه تساؤلك، ولا من يتهمم بنهضة تهممك، ولا من يعجب إعجابك العظيم بقطعه القليلة التي تطلعين عليها آناً بعد آن، ولا تطلعين عليها الا من طريق الترجمة التي إنما تكشف لك عن جانب واحد من وجهها الصبوح.

وأنت ملحاح ان تعرفي سبب الركود الذي يعتري الحياة الشعرية في هذه الايام، في هذه الديار ولقد لمحت لك الى ان الشعر الذي تبحثين عنه والذي هو، في نظري أيضا، الشعر؛ لا يمكن أن يزدهر في هذه الآونة الا بمقدار. فان الشعب المغربي اليوم في غليان لطلب حقوقه واستعادة مكانته في الوجود وهو لذلك قد صرف جميع جهوده للتنبيه والايقاظ فليس ثم من يستسلم لخيال الشعر ولا من يوخذ بجمال موسيقاه

(1) هي أديبة إسبانية شابة كانت تصدر مجلة للشعر مزدوجة اللغة باسم «المعتمد» في مدينة العرائش وهي الان كاتبة ببلدية غرناطة.

الجنون حاشا، شعر الكفاح والتغني بالمجد وبعث روح الغيرة والحمية في النفوس فان هذا هو الشعر الذي تصغى اليه الجماهير الشعبية وعلى نغمته يضرب زعماء الفكر وقادة النهضة عندنا.

وهذا لا يعني أن الشعر الفني انعدم بالمرة وانه لم يبق هناك هواة له ولا قائلون فأنت تعرفين أن لنا شعراء موهوبين يقومون بواجبهم كمواطنين ولا ينسون التحليق في جو الخيال الممتع واستيحاء روح الشعر الملهمة.

واذا كان لي ان ادلك على بعضهم، زيادة على من تعرفين منهم، فدونك هذا النغم الحلو لمحمد الحلوي من فاس:

اترعت كاسها ففاضت حبابا حالما يعشق الشفاه العذابا
فاتها ان سحرها يملأ الاكؤ س من قبل ملئهن شرابا
وتناست ما للفتوة من سحـ ـر يضيق الوجود عنه رحابا
أترعت كأسها وللكأس آها ت ونجوى لو تستطيع خطابا
فطواها الحباب بين ذراعيـ ـه وألقى على سناها ضبابا
وبدت زورقا يصارعه المو ج ولاحت شمساً تميط الحجابا
ورنت نحوها فكانت سنا صبـ ـح وضيء وكان تبرا مذابا
وانحنت ترشف الكؤوس دهاقا وتدير العقول والاكوابا
وتروي سمارها أعذب الشعر فتشجى الاسماع والالبابا
غادة أطلسية السحر صاغتها يد الله فتنة وشبابا
ليس يدري جليسها وهي تسـ ـقيه أخمرا تعله أم رضابا
لا ترى من هوى عجوز رآها فتناسى جلاله وتصابى
لو رآها الرهبان بين العذارى في مسوح لودعوا المحرابا

وهـذا النغم الثاني لعبد السـلام العلوي من فـاس كذلك :

وجهك الوضـاح للقلب نعـيـم وهـنـاء
تـركن الـروح إليـه فتناجيهـا السـمـاء
ويغيم الفـكر حينـاً فـاذا هـو ذكـاء
فهو في الافـراح فيض وهو في الحزن عزاء
كلمـا أظلـم أفـق شع لي منـه ضيـاء
لحظك الساجي لاعصا بي هـدوء وسكـون
أنـهل الـراحـة منـه ان امضـتـه الشجـون
وأرى فيـه رشـادي ان رمت بي الظنون
فـاذا غـاض شعـوري كان لي منه معين
واذا مـا حـار لبـى جاءني منـه اليقيـن

oooooo

ثغـرك البـاسم دنيـا مـن نظـام وانسجـام
تلجـأ النفـس اليـه فـي احتدام والتحـام
طالمـا ظـل خيالـي بين أمـواج الظـلام
فانحنى نحـوي بعطـف وهـيـام وابتـسـام
وسمـا بالنفس حتـى حلقـت فـوق الغمـام

oooooo

لفظك السـاحر لحـن رددتـه الكـائنـات
جـل عن شعـر ونثـر وسمـا فـوق اللغـات
ليس يحـكيه هـزار شاديـا فـي الربـوات
هـو لحـن عبقري ضم أحلى الذكريات
موسيقى الخلد تجلت فـأتـت بالمعجـزات

أما أنا فإنتاجي في هذا المجال قليل، لاشتغالي بما تعلمين وما لا تعلمين من مستقبل هذا الوطن العزيز واندفاعي في ميادين شتى من التعليم والبحث التاريخي والادبي وأعمال اخرى اجتماعية وإنسانية، فإذا حدث وتحركت عاطفتي الشعرية فاني اصرفها الى ما تصغى إليه الجماهير ويضرب على أوتارها المشدوذة، وليس في ذلك ما يصلح (للمعتمد) وقرائها الراضين، لكني أقدم اليك هذا القصيد الوجداني مما لا أزال احتفظ به من هذا اللون من الشعر، ولعله يرضيك، خاصة وهو مما نظمته بحمة لانخرون من اسبانيا، وطنك المفدي وفردوسنا المفقود:

ايها الظاعن الذي اخذ القلب ... وخلى الجسم النحيل سليبا
قف قليلا فان روحي على اثر ... ك لولا الاسا لفاضت لغوبا
ما شفى نفسي الوداع واني ... للوداع الكئيب يشفي كئيبا
ولقد زادني جمود بعيني ... وبكاك الحزين وجدا وحوبا
أتراه مني فتورا ولكن ... ايشب الفتور هذا اللهيبا
ان من هول ما يلاقي المحبو ... ن، لما يجعل المحق مريبا
فارث للعين حين تجمد لا إن ... أرسلت دمعها المرير صبيبا
يفرج الكرب بالبكا ويزيد الـ ... ـصدر بالمدمع الشحيح كروبا

ooo ooo

شاعك الأمن والسلامة أنى ... ما توجهت يابعيدا قريبا
ورعى الله ذلك الانس واللـ ... ـطف، ولا راع سر بك الحبوبا

انني لولا الاشفاق من خطأ الترجمة او ضعفها لزردتك من هـذه الانغام لشعراء الجنوب الذين تريدين ان تتعرفي عليهم، وهم كثير، ولعل صديقنـا الشاعر عبد القادر المقدم سيزودك بحصيلة أخرى من شعرهم في فرصة مواتية، واسلمي للمعجب بك وبأدبك وبمجلتك «المعتمد» ياعتمادي الحضرية.

الشعر الوطني المغربي

في عهد الحماية

قرأت في الانباء الغراء العرض المفصل الذي كتبه الاستاذ عبد القادر الادريسي، لكتاب الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية للدكتور ابراهيم السولامي، فشوقني لقراءة هذا الكتاب الذي سمعت به من قبل ولم أراه، فاتصلت بالمكتبة التي أتعامل معها سائلا عنه، ولحسن الحظ وجدته فيها.

وقد قرأته بعناية وأكبرت المجهود الذي بذله مؤلفه، والصبر الذي تحلى به، حتى أمكنه جمع مادته المتفرقة في شتى المراجع، مما هو مظنة لوجودها وغير مظنة، ثم اكبابه على دراسة هذه المادة وتحويلها الى كتاب قيم، يؤرخ ويقوم هذا اللون من انتاجنا الشعري في فترة حاسمة من تاريخنا الحديث.

وانتهيت الى أن هذا الكتاب عمل أدبي جليل ومساهمة جادة في النشاط الفكري الذي يحركه ثلة من مثقفينا الاكفاء، ولا يقدر قدره الا من نزل الى الميدان وحاول فيه محاولة ما، وبما أنه قلما يخلو مؤلف من العثرات، فقد وقعت فيه على

بعض المآخذ وأنبه منها على ما يتصل بي خاصة، لئلا يصير حقيقة مسلمة، كما يحصل كثيرا في مثله، بسبب عدم النقد وقلة التمحيص.

ففي صفحة 180 أنشد لي بيتين من قصيدة في عيد العرش، جعل قافيتهما معا: وتمجد، والصواب في قافية البيت الثاني، وتجدد، وفي ص 192 نسب إلي مقالا منشوراً في مجلة «الرسالة» لاحمد حسن الزيات بعدد ماي 1936، وهو ليس لي، وكانت الشبهة التي اوقعته في هذا الغلط هي توقيع المقال بحرفي ع ك وقال انه اكد له غير واحد نسبة المقال الي، وكان حقيقا أن يسألني قبل ان يسأل غيري للتأكد من انني صاحب المقال او ليس صاحبه.

هذا إلى أن فكري في الموضوع الذي يتضمنه المقال، ليس كما قال، فأنا لم أنكر قط وجود حركة أبية في المغرب، سواء في كتاباتي القصيرة أو في دراساتي المطولة، ولكنني لم أبالغ في تقديرها بالنسبة لفرد ولا لجماعة، ولذلك لم أستثن مطلقا أي شخص من الواقع الادبي الذي وقفت به دائما عند حدوده.

وفي ص 202 علق المؤلف على بيت من قصيدتي الدالية التي قلتها في حوادث الدار البيضاء عام 1947 وهذا البيت هو قولي في تعداد مساويء الغرب.

اروني فضله في غير حرب   لازهاق النفوس تعد عدا

فكتب ناقداً له ما يلي: فانظر الى قول الشاعر (لازهاق النفوس تعد عدا) فقد بدا وكان كنون لم يجد ما يتمم به

البيت فجاء بقوله (تعد عدا) لانهائه والا فإن الارواح التي أزهقها الاستعمار لو كانت قليلة حتى انها تعد، لكان ذلك من حسناته، فكفى المتسلطين فخرا ان تعد ضحاياهم).

وهذا الكلام غريب صدوره من مثل المؤلف، فإن ربط جملة تعد عدا بالنفوس لا يصح إعرابا ولا معنى، والجملة مع متعلقها اي عجز البيت بكامله، هي وصف لكلمة حرب في صدر البيت،، والمعنى الصحيح البيت والواضح هو: اروني فضل الغرب في غير الحروب الساحقة الماحقة التي تعد عدا لإزهاق النفوس والارواح ففعل تعد في البيت مضارع اعد الرباعي من الاعداد، لاعد الثلاثي الذي مصدره العد بمعنى الحساب.

وفي هذا المعنى يقول عمرو بن معد يكرب في داليته الشهيرة:

اغنى غناء الذاهبين اعد للاعداء عدا

فلو أن الناقد تأمل قليلاً في تركيب البيت، او لو استحضر التراث لما وقع في هذا الخطأ الشنيع.

ثم أن البيت يعدد مساويء الغرب او الحضارة الغربية بعبارة اخرى، على العموم، ولا يخص الاستعمار فما تزهقه هذه الحضارة في حروبها العالمية من النفوس اكثر من ان يعد، وبذلك يكون الحساب غير ما خرج مع المؤلف.

ويقول المؤلف أيضا في نفس الصفحة ناقدا هذا البيت من القصيدة نفسها وهو في خطاب المستعمرين:

لقد فشلت مهمتكم تماما فلا ترجون بعد اليوم مهدا

(إنه لخير ان ندرج الشطر الاول من البيت السابق في دائرة النثر البسيط، فليس له بظلال الشعراء اي نسب) .

ونقول تعقيبا على هذا الكلام: وماذا يضر ذلك الشطر ان يكون من قبيل النثر البسيط، وقد صار الشعر كله نثرا بسيطا؟ بل ياليت بعض الناس كان في مقدورهم ان يكتبوا النثر البسيط ولا يقعوا في النثر، فيما هو أقبح مما يعيبه المؤلف، وقد عددت في مقدمة كتاب قصيرة، لا تبلغ صفحاتها عدد أصابع اليد الواحدة، من أخطاء اللفظ والتركيب، ما يؤسف له.

وأخيرا جاء في ص 230 بشكل ترجمة لي ما يلي: جنون عبد الله.

وبحكم كتابة لقبى بالجيم بدل الكاف، فقد وقعت هذه الترجمة في عداد المترجمين في حرف الجيم والمؤلف يكتب نسبي هذا او لقبي على الاصح تارة بالكاف وتارة بالجيم وفي الفهرس كتبه بالكاف، فربما ظن من لا يحقق الامور ان الامر يتعلق بشخصين اثنين، ولو اعتمد المؤلف احدى الكتابتين لكان أولى، ومع أني لا أطالب احدا ان يكتب هذا الحرف بغير ما يشاء، فان ما درج عليه أهل بيتنا هو كتابته بالكاف، فرقا بينهم وبين بيوت اخرى ثبت في نسبهم كتابته بالجيم.

وعلى العموم كنت أحب لو أن المؤلف لم يسلك في هذه التراجم الاسلوب الاداري الموروث عن عهد الاستعمار البائد، فحتى من يقلدهم في ذلك. لا يلتزمونه، ولم نسمعهم

قط يقولون: دكول شارل ولا بومبيدو، جوزج، فالاسلوب العربي الصحيح هو عبد الله كنون او جنون كما يشاء المؤلف، وهكذا في بقية التراجم.

ثم إذا شاء التقريب بعد ذلك والتسهيل على الباحث، وضع هذه الالقاب في الفهرس بحسب الحرف الذي تندرج تحيته، وأحال فيها على الاسماء الشخصية.

ولم أستطع أن افهم الربط بين زيادة شهرتي العلمية وتوليتي بعض الوظائف بعد الاستقلال، فالامر إن كان يتعلق بالوظيفة، فقد وليت قبله وظائف لا تقل عن التي وليتها بعده!.

أعود فأنوه بكتاب الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية. واثني علي الدكتور إبراهيم السولامي بما أسداه للحركة الفكرية وتاريخ الادب في المغرب من خدمة تذكر فتشكر، وأتمنى له المزيد من النشاط ليتحف المكتبة العربية بأمثال دراسته المفيدة هذه.

كلمات معبرة

من استذل الاحرار بالعبيد، استذله العبيد

ما رأيت أحمق ممن يغاضب الرءوس ويترضى الاذناب

لم ار أكثر ظنة من الظنين

دخل حب الذات من باب ، فخرج الاخلاص من باب

إنما يكثر الانتقاد ، حيث يقل العمل

الوجه الذي لا يحمر من الخجل، يحمر من اللطم

من حيث يظن الكمال، يأتي النقص

للتكلف نتيجة حتمية هي العجز

إنما يعظم أغنياء الحرب في أعين فقراء القلب

لكل فئة زعيم وزعيم المقلدة القرد

أخطاء مطبعية

ص	س	خ	ص
7	18	تبتت	نبتت
8	17	الرسئلة	الرسالة
12	17	اذأ	اذا
15	3	يذكره	يذكر
15	6	دراسين	دارسين
17	7	في	فن
17	22	ضرارا	ضررا
23	7	المدينة	المدنية
23	8	مدينة	مدنية
32	7	متحرمة	محترمة
42	4	صاحب التاج	كما عند صاحب التاج
43	5	يفتؤوا	يفتأوا
46	7	جميع	جمع
48	20	واودة	واردة
52	9	ويريد	ويزيد
53	15	أجال	آجال
56	16	عنهما	منهما
59	3	القديم	القدم
63	14	قبنية	تبنيه
64	5	المعنى	للمعنى
72	23	فيزيقي	فزيقى
83	6	الاصلية	الاصيلة
87	14	نما	انما
87	22	وما	ومما
91	16	وتستبيق	وتستبق
92	4	انتظم	اذا انتظم
93	18	ما	من
95	8	ناقدا	نافذا
100	18	الرسول	للرسول
102	18	الوتريمات	الوتريات

ص	س	خ	ص
108	9	مرتكبون	مرتبكون
112	18	يجيب	يجب
113	6	العبارت	العبارة
131	3	ورقت	ورفت
131	20	الاعيان	الاحيان
137	16	وقع في هذا السطر والذي بعده خلل في التصفيف وتصحيحهما كما يلي: فلم أجده يؤدي ما في نفسي بوضوح مع طوله وقلت اجعله الفيلسوف ابن رشد الفقيه او فقيها فوجدته يقارب.	
138	6	AVERROER	AVERROES
139	13	السطه	السلطة
146	1	ويشير	ويثير
147	12	استغلاله	استقلاله
150	7	عليك	عابك
150	12	الرسائل	الرسالة
151	2	الكاتب	الكتاب
154	9	النصص	النص
154	20	الايسكوريال	الاسكوريال
158	6	ولغة	ونبعة
159	6	الطبيب	الطيب
159	13	وقد	ومن
160	4	كلها	كلمتها
162	22	الكتابة	الكتاب
171	2	اصلها	اصلهما
172	13	ذرة	ذرة
172	20	الدرهم	الدراهم
177	8	يا حمال	يا جمال
180	4	مشكلتها	مشكلته
185	6	بنهضة	بنهضته
188	20	الحبوبا	المحبوبا
190	6	اراه	اره
193	7	المؤف	المؤلف
194	6	تحيته	تحته
196	4	لن	لمن

فهـرس

صفحة